نُصحُ المُؤمِنين
وتِبيَانُ مَنازِلِ السَّائِرين

شَرحٌ لِقَصِيدَة :
السَّير إلى اللّهِ والدَّارِ الآخِرَة

للعلّامة الشيخ

عَبد الرحمن بن ناصر السَّعدي

١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ رحمه الله تعالى

تصنيف

الصغيّر بن عمّار

غفر الله له ولوالديه

النسخة الثانية (مصحَّحَة ومَزيدة) - 1440 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خَلَق الخلقَ ليعبدوه، وبالإلاهية يفردوه، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، فانقسم الناس بذلك إلى سائر إليه مُقرَّبٍ سعيد، ومُتَخلِّفٍ عن الرَّكب مُعَذَّبٍ بعيد. وصلى الله وسلم على خير خلقه، وإمام رسله، محمدٍ بنِ عبد الله. اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آلِه وصحبه، ومن استنَّ بسنته، وسار على دربه، واهتدى بهديه.

أما بعد،

فهذا شرح متوسط على «قَصيدَة في السَّيْرِ إلى اللهِ والدَّارِ الآخِرَةِ» **للشَّيخ العَلامَة عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السِّعْدِيِّ** رَحِمَهُ اللهُ.

وأصل هذا الشرح مجلس إملاء [1] ألقيته في «**مسجد الأتراك**» [2] بمدينة «**كلارمون فيرون**» الفرنسية. وكان تاريخ إلقاء هذا الدرس فجر الأحد 15 من جمادى الأولى لعام 1435، الموافق لـــ 16 مارس من عام 2014 ميلادي.

---

1 – الدرس الصوتي موجود على هذا الرابط:

https://www.dropbox.com/s/23yev245p3600r5/%D8%B4%D8%B1%D8%AD%20%D9%85%D9%86%D8%B8%D9%88%D9%85%D8%A9%20%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%B1%20%D8%A5%D9%84%D9%89%20%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%A7%D8%B1%20%D8%A7%D9%84%D8%A2%D8%AE%D8%B1%D8%A9%20%D9%84%D8%A7%D8%A8%D9%86%20%D8%B3%D8%B9%D8%AF%D9%8A.mp3

2 – **ومن فضل الله علي وعلى إخواني أن درَّستُ في هذا المسجد العديد من الكتب العلمية في عدة فنون شرعية، ومنها**: فتح المجيد، وكشف الشبهات، وشرح الواسطية للهراس، ولمعة الاعتقاد، وشرح الطحاوية للشيخ صالح آل الشيخ (ولم يتمَّ بعد)، والوصية الصغرى لشيخ الإسلام، وتائية الألبيري، وأبواب في الفقه، وغير ذلك من الرسائل. ولله الحمد والمنَّة، مع الشكر للقائمين على هذا المسجد، و«**لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ** =

وقد قام بتفريغه، من الدرس الصوتي، الأَخَوان الفاضلان الوفِيَّان: «**خير الدين الغول**»، و«**غازي عبد النَّاجي**» وفقهما الله لكل خير، وبارك فيهما، وختم لهما بخير.

ثم قام الأخ الفاضل «**خير الدين الغول**» سدده الله، وثبت على الحق خطاه، بتخريج أحاديث الشرح، معتمدا على «**الموسوعة الشاملة**»، وقد بَذَلَ فيه جهدا كبيرا، فجزاه الله خيرا. ولما نظرتُ في التفريغ، وجدت بعض الجمل تحتاج إلى تحرير، وأخرى إلى تقديم وتأخير، مع عزو للمنقول، وزياداتٍ تحقق من هذا الشرح المُبتَغى والمأمول، فعَمَدتُ إلى ذلك، معتمدا أولا على المِلك العلاَّم، ثم على دواوين علماء الإسلام، رحمهم الله، وأكرمهم أعظَم إكرام.

وقد اعتمدت في هذا الشرح على عدة مراجع، ومن أكثرها كتب الشيخين السَلَفِيّين: **شمس الدين ابن قيم الجوزية، وزين الدين ابن رجب الحنبلي، عليهما من الله الرحمة والرضوان، مع نقل آثار كثيرة للسلف من كتاب «صفة الصفوة» لابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ.[3]

واستفدت كثيرا من شرح المصنف نفسه: **العلامة ابن سعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **وتعليق شيخنا صالح بن عبد الله العصيمي حفظه الله**[4] على هذه المنظومة المباركة، مع عدة كتب أخرى.

= **النَّاسَ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ وصححه الألباني. «فمن كان من طبيعته وخلقه عدم شكر الناس على معروفهم وإحسانهم إليه، فإنه لا يشكر الله لسوء تصرفه وجفائه، فإنه يغلب عليه في مثل هذه الحال أن لا يشكر الله...». قاله العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

3- **وهو مختصر من «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني، ولا شك أن النقل من الأصل أولى لأنه مسند، غير أنني لا أملك إلا صفة الصفوة، ويشق علي مراجعة كل نقل على كثرة ما أوردت، وعليه، فمن أراد مراجعة الخبر المسند فليراجع الأصل، والله سبحانه المستعان، ومنه المَدَد، وعليه التُّكلان.**

4- أرسلت نسخة من هذا الشرح لشيخنا صالح العصيمي وفقه الله، فرد قائلا: «نفع الله بك وزادك علما... قرأت منه مواضع فراق لي... دمت مباركا»، فجزاه الله عني خير الجزاء.

وسمَّيتُ هذا الشرح: «نُصحُ المؤمنين وتِبيَانُ مَنازِلِ السَّائِرين: شرحٌ لِقَصِيدَةِ السَّيرِ إِلى اللهِ والدَّارِ الآخِرَة». **وحُقَّ لي في مثل هذا المَقام، أن أتمثل بقول الشاعر:**

أَسِيرُ خَلْفَ رِكَابِ النُّجْبِ ذَا عَرَجٍ ... مُؤَمِّلاً غَيْرَ مَا يَقْضِي بِهِ عَرَجِي

فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا ... فَكَمْ لِرَبِّ السَّمَا فِي النَّاسِ مِنْ فَرَجِ

وَإِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الأَرْضِ مُنْقَطِعَاً ... فَمَا عَلَى أَعْرَجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ

ولكنَّ الأمر كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ**»[5].

وما أجمل قول شيخ المؤرخين الجزائريين **أبي القاسم سَعدَ الله** رَحِمَهُٱللَّهُ **تعالى في كتابه** «**حِبر على وَرَق**»: «**اكتبوا حتى بأَهْدابِكم وأظافِركم إذا لم تُطِعْكم أقلامُكم...**». انتهى.

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، أن يَكتُبَ لهذا الشرح القَبول، وأن ينفع به كاتبه، وكل من سعى لإخراجه، كما نفعَ بأصله، وأن يجعلَه لي ذُخرا يوم ألقاه، حينَ لا ينجو من عذاب الله إلا من رضي الله عنه واجتباه، إنه ولي ذلك ومولاه.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه، وسلم.

وكتب [6]

الصغيّـر بن عمّـار

ليلة الأربعاء 19 من شعبان لعام 1435

الموافق لـ 17 جوان 2014 بمدينة «كلارمون فيرون» بفرنسا [7]

5- رواه مسلم، كتاب السَّلاَم، بَابُ اسْتِحْبَابِ الرُّقْيَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالنَّمْلَةِ وَالْحُمَةِ وَالنَّظْرَةِ، رقم (61-2199).

6- وأعدت تحرير وتصحيح بعض الجمل، مع زيادة بعض النُّقول، يوم الاثنين 8 رمضان 1435 الموافق لـ 7 جويلية 2014 بمدينة «تولوز» الفرنسية.

نصُّ المنظومة

قَالَ الشَّيخُ العَلامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْن نَاصِر السِّعْدِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ في قَصِيْدَتِهِ المُشْهُورَةِ بـ «قَصيدَة في السَّيْرِ إلى الله والدَّارِ الآخِرَةِ»:

سَعِـــدَ الَّذِيـــنَ تَجَنَّبوا سُبُلَ الرَّدَى — وَتَيَـمَّـمُـوا لِمَنَــازِلِ الـرِّضْــوانِ

فَـهُـمُ الَّـــذِينَ اخْلَصُوا في مَشْيِهِمْ — مُـتَـشَـرِّعِينَ بِشِـرْعَةِ الإِيــمـانِ

وَهُـــمُ الَّذِيـــنَ بَنَوا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ — بَـيْـنَ الرَّجَـا وَالخَـوْفِ لِلدَّيَّـانِ

وَهُـــمُ الَّـــذِينَ مَلا الإِلَهُ قُلُوبَهُمْ — بِــوِدَادِهِ ومَــحَـبَّـةِ الـرَّحمَـــنِ

وَهُـــمُ الَّذِيـــنَ قَدَ اكْثَروا مِنْ ذِكْرِهِ — في السِّــرِّ والإِعْـلانِ وَالأَحْـيَـانِ

يَتَـــقَـــرَّبُـــونَ إِلَى الْمَلِيْكِ بِفِعْلِهِمْ — طاعــاتِـهِ وَالتَّــرْكِ للعِـصْيَـانِ

فِـعْــلُ الفَرَائِضِ وَالنَّوافِلِ دَأْبُهُم — مَع رُؤْيَةِ التَّـقْصِيرِ والنُّـقْـصَــانِ

صَـــبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى المَكارِهِ كُلِّهَا — شَوْقـاً إلى مَا فِـيْهِ مِــنْ إِحْسَـانِ

نَـــزَلُــوا بِمَـنْزِلَةِ الرِّضَى فَهُمُ بِهَا — قَدْ أَصْبحُـوا في جُــنَّـــةٍ وأَمَـــانِ

شَـــكَرُوا الَّذي أَوْلَى الخَلائِقَ فَضْلَهُ — بِالقَـلْبِ والأَقْــوَالِ والأَرْكَـــانِ

صَـــحِبُوا التَّوكُّلَ في جَمِيعِ أُمُورِهِم — مَعَ بَـذْلِ جُــهْدٍ فِي رِضَى الرَّحْمَـنِ

=

7- ثم يسَّر الله أن علَّقت على هذا الشرح –بعد انتقالي إلى مدينة «ليون»- في ثمانية مجالس في رمضان 1440، ضمن درسي الأسبوعي بمجموعة «المتخصص» على شبكة الأنترنت، فكان الشرح معتمدا بالكلية على كتابي هذا، وعندها صححت فيه أمورا، وزدت أخرى كما حذفت منه شيئا يسيرا، فجاءت هذه النسخة الثانية على هذا الوجه، والله المسؤول أن يتقبله عنده خالصا لوجهه.

وهذا رابط دروسي على اليوتيوب في التعليق هذا الشرح: https://www.youtube.com/watch?v=oEHjlwBrRLw

عَبَدُوا الإِلَهَ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ ... فَتَبَوَّؤوا فِي مَنْزِلِ الإِحْسَانِ
نَصَحُوا الخليقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِم ... بِالعِلْمِ والإِرْشَادِ وَالإِحْسَانِ
صَحِبُوا الخَلائِقَ بِالجُسُومِ وإِنَّمَا ... أَرْوَاحُهُمْ فِي مَنْزِلٍ فَوْقَانِي
بِاللهِ دَعْوَاتُ المَشَاهِدِ كُلِّهَا ... خَوْفاً عَلَى الإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ[8]
عَزَفُوا القُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا ... قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِوَى الرَّحْمَنِ
حَرَكَاتُهُمْ وَهُمُومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ ... للهِ لا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ
نِعْمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي ... تُفْضِي إِلى الخَيْرَاتِ وَالإِحْسَانِ

8- رجح بعض المعاصرين أن هذا البيت هكذا:

رَعَوْا الحقائِقَ والمَشَاهِدَ كُلَّهَا ... خَوْفاً عَلَى الإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ

وسيأتي التنبيه عليه أثناء الشرح.

بداية الشرح

هذا شرح لـ «**قصيدة في السير إلى الله والدار الآخرة**»[9]، للشَّيخِ العَلامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرٍ السِّعْدِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى. وهي منظومة ذكر فيها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض منازل السائرين إلى الله تعالى.

معنى السير إلى الله

والسير إلى الله: هو قطع الطريق إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. **والقطع هنا إنما يكون بالقلب، لا بالبدن.**

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ [10]: «سفر الآخرة يُقطع بسير القلوب، لا بسير الأبدان».

وقال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [11]: «**مَفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومَفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب**».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [12]: «فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته، لا ببدنه». انتهى.

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[13]: «فالمؤمن في الدنيا يسير إلى ربه حتى يَبلُغَ إليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩].

قال الحسن: يا قوم المداومةَ المداومةَ، فإن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، ثم تلا هذه الآية...». انتهى.

9- واعتمدت في هذا الشرح على النسخة التي صححها شيخنا العصيمي لهذا النظم.

10- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 434).

11- «صفة الصفوة» (2/ 294).

12- «الفوائد» (ص 173).

13- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 442).

فإذا سار القلب إلى الله، وانقطع إليه، تقيَّد بحُبه، وصار في وثاق العبودية، فلم يبق له مَفزعٌ في النوائب، ولا ملجأ غيره، ويصير عدَّته في شدَّتِه، وذخيرتَه في نوائبه، وملجأَه في نوازله، ومستعانَه في حوائجه وضروراته.[14]

واعلم -رحمك الله- أن **الوصول إلى الله نوعان**[15]:

أحدهما: في الدنيا.

والثاني: في الآخرة.

فأما الوصول الدنيوي فالمراد به: أن القلوبَ تصل إلى معرفته، فإذا عرفته أحبته، وأنِست به، فوجدتهُ منها قريبا ولدعائها مُجيبا.

وأما الوصول الأُخرَوِي: فالدخول إلى الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه.

ولكنهم في درجاتهم متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في الدنيا في القرب والمشاهدة. انتهى

فالعبد في حياته إنما هو ماض إلى الله تعالى، وفي هذا الطريق يمر بمنازلَ لن يدخلَ الجنة حتى يقِفَ بِها. والشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى سيذكر بعضها في هذه المنظومة اللطيفة، فإنها، كما قال مصنِّفُها[16]: «**قد حصلت على كثير من منازل السائرين إلى الله، التي توصل صاحبها إلى جنات النعيم في جوار الرب الكريم، وتمنعه من عذاب الجحيم والحجاب الأليم**».

وممن فصل هذه المنازل، شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «**منازلُ السَّائرين**»، والذي شرحه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العُجاب: «**مدارجُ السَّالكين بين**

14- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 9).

15- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 447-448) باختصار.

16- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 9).

منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، وهو كتاب معروف عند الناس، وقد ذكر فيه مؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ منازل كثيرة بعضها واجب وبعضها دون ذلك...

والذي سيذكره الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هو خلاصة لطيفة، تصح أن تكون كالمدخل لهذا الباب العظيم من تزكية النفس.

بدأ الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر عنوان مؤلفه، وهو: «قَصيدَة في السَّيْرِ إلى اللهِ والدَّارِ الآخِرَةِ».

والسير إلى الله والدار الآخرة أعظمُ مطلوب يرجوه العبد. وإذا حثَّ العبدُ السيرَ في الدنيا فإنه سيصل بإذن الله تعالى، بشرط أن يكون سيرُه على طريق مستقيم.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ [17]: «**والطريق الموصل إلى الله هو سلوك صراطه المستقيم، الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه وأمر الخلق كلهم بسلوكه والسير فيه.**

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الصراط المستقيم، تركنا مُحَمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أدناه، وَطَرفه فِي الْجَنَّة، وعن يمينه جَوَادُّ، وعن يساره جَوَادُّ، وَثَمَّ رِجَالٌ يَدعون من مرَّ بِهم، فمن أخذ فِي تلك الجَوَاد انتهت به إلى النار، ومن أخذ عَلَى الصراط انتهى به إلى الجنة. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام: ١٥٣]،أخرجه ابن جرير [18] وغيره.

فالطَرِيق الموصل إلى الله واحد، وَهُوَ صراطه المستقيم، وبقية السبل كُلّهَا سبل الشيطان، من سلكها قطعت به عن الله، وأوصلته دار سخطه وغضبه وعقابه». انتهى.

فليس كل من سار وصل، ولكنَّ الذي يصل هو الذي اتبع واقتفى طريق المرسلين ظاهرا

17- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 444).

18- «جامع البيان» (9/ 671).

وباطنا. فلهذا كانت معرفة الطريق والسعي فيه مع الاستعانة بالله وعدم العجز، رأسَ الأمر.

قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ**»[19]. وهذا كلام جامع نافع، محتوٍ على سعادة الدنيا والآخرة [20].

فينبغي الحرص على الخير مع عدم نسيان أنك لن تصل إلا بتوفيق الله تعالى. وإذا عرض لك شيء فلا تعجز ولا تَفتُر.

يقول العلاّمة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [21]: «**فمتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان بِرَبِّه في حصولها وتكميلها: كان ذلك كمالَه، وعنوانَ فلاحِه.** ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة: فَاتَه من الخير بحسبها...». انتهى.

فإذا حققت هذه الأمور الثلاثة، بلَّغَكَ اللهُ مُبتغاكَ. وفي الحديث: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ**» [22].

ومن جميل كَلِم ابن الجوزي [23]: «من تفكَّر في عواقب الدنيا أَخَذَ الحذر، ومن أيقنَ بطول الطريق تأَهَّبَ للسفر». انتهى.

19- رواه مسلم في صحيحه كتاب القدر، باب في الأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِّ وَتَفْوِيضِ الْمَقَادِيرِ للهِّ، رقم (34 - 2664)، والإمام أحمد، مسند أبي هريرة (14/ 395)، رقم 8791.

20- انظر: «بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار شرح جوامع الأخبار» (41-46).

21- «بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار شرح جوامع الأخبار» (41-42).

22- رواه الترمذي أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، باب 18 (أَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللهُّ)، رقم 2450. انظر: «السلسلة الصحيحة» 2 / 675، رقم 954.

23- «صيد الخاطر» (ص 9).

التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سَعِـــدَ الَّذيـــنَ تَجَنَّبوا سُبُلَ الرَّدَى وَتَيَـمَّـمُـوا لِمَنَـازِلِ الـرِّضْـوانِ

بدأ الشيخ رحمه الله تعالى بذكر أمرين عظيمين ينبغي أن يتَّصفَ بهما كل سائر إلى الله:

الأمر الأول: هو التخلي عن كل ما يعوق ذلك السير.

والأمر الثاني: التحلي بكل ما يفيد في ذلك السير.

[سَعِـــدَ الَّذيـــنَ تَجَنَّبوا سُبُلَ الرَّدَى]

ينبغي للسائر إلى الله أن يتجنب كلَّ أمر يَعُوقُ سيرَهُ، ويُضعِفُ مشيهُ، ويحولُ بينه وبين مُبتغاه، وذلك أن السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره **ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين**: قوةٍ علمية، وقوةٍ عملية.

فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل...

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح... [24]

وهذه المعاطب والعوائق بَيَّنها العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **بقوله** [25]: «**وَأما الْعَوَائِق فَهِيَ أَنْوَاع المخالفات ظَاهرهَا وباطنها**، فَإِنَّهَا تعوق الْقلب عَن سيره إِلَى الله وتقطع عَلَيْهِ طَرِيقه، **وَهِي ثَلَاثَة أُمُور: شرك، وبدعة، ومعصية. فيزول عائق الشّرك بتجريد التَّوْحِيد، وعائق الْبِدْعَة بتحقيق**

24- «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص 188).

25- «الفوائد» (ص 188)، وانظر: فصلا في «قواطع الطريق إلى الله» في كتاب «الفوائد» (ص 208).

السّنة، وعائق الْمَعْصِيَة بتصحيح التَّوْبَة. وَهَذِه الْعَوَائِق لَا تتبين للْعَبد حتَّى يَأْخُذَ فِي أهبة السّفر ويتحقق بالسير إِلَى الله وَالدَّار وَالْآخِرَة، فَحِينَئِذٍ تظهر لَهُ هَذِه الْعَوَائِق، وَيحسن بتعويقها لَهُ بِحَسب قُوَّة سيره وتجرّده للسَّفر، وَإِلَّا فَمَا دَامَ قَاعِدا لَا يظْهر لَهُ كوامنها وقواطعها». انتهى.

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنَّ من عقوبات المعاصي**[26]: «**أَنَّهَا تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، أَوْ تَعُوقُهُ أَوْ تُوقِفُهُ وَتَقْطَعُهُ عَنِ السَّيْرِ**، فَلَا تَدَعُهُ يَخْطُو إِلَى اللهِ خُطْوَةً، هَذَا إِنْ لَمْ تَرُدَّهُ عَنْ وُجْهَتِهِ إِلَى وَرَائِهِ، **فَالذَّنْبُ يَحْجِبُ الْوَاصِلَ، وَيَقْطَعُ السَّائِرَ، وَيُنَكِّسُ الطَّالِبَ، وَالْقَلْبُ إِنَّمَا يَسِيرُ إِلَى اللهِ بِقُوَّتِهِ، فَإِذَا مَرِضَ بِالذُّنُوبِ ضَعُفَتْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تُسَيِّرُهُ**، فَإِنْ زَالَتْ بِالْكُلِّيَّةِ انْقَطَعَ عَنِ اللهِ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ». انتهى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوانِ]

تيمَّمُوا، أي: قصدوا. قال تعالى: ﴿**وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ**﴾[البقرة: ٢٦٧]، أي: ولا تقصدوا[27].

والمعنى هنا: وقَصَدُوا لمنازلِ الرِّضْوانِ.

فهم تَخَلَّوْا عما يشين وتَحَلَّوْا بما يزين.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ذكر في هذه المنظومة ما تَحَلَّوْا به فأوجبَ لهم كمال المحبة، ولم يشتغل ببيان ما تَخَلَّوْا عنه، **لأن التحلي يُثمر التخلي**، فإن من ملئ قلبه بالمقامات الكاملة صدَّته عن التلطُّخ بنجاسات القلوب من الشهوات والشبهات[28].

26- «الجواب الكافي» (ص 76).

27- انظر: «المصباح المنير» للفيُّومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 357).

28- من تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة (ص 4)، وانظر: شرح المصنف (ص 13-14).

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[29]: « **وقد أجمع السائرون إلى الله أنَّ القلوب لا تُعطَى مُناها حتّى تصل إلى مولاها**، ولا تصلُ إلى مولاها حتى تكونَ صحيحةً سليمةً، ولا تكونُ صحيحةً سليمةً حتى ينقلب داؤها فيصيرَ نفسَ دوائها. ولا يصحُّ لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرَضُها، وشفاؤها مخالفتُه، فإن استحكم المرضُ قتَلَ أو كاد». انتهى.

29- «الجواب الكافي» (ص 79).

منزلة الإخلاص والاتباع

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها:

فَـهُمُ الَّـــذينَ اخْلَصُوا في مَشْيِهِمْ مُـتَـشَـرِّعِينَ بِشِـرْعَةِ الإيـــمـانِ

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذا البيت **شرطي قبول العبادة**، وهما:

- الإخلاص،
- والاتباع.

الإخلاص

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[فَـهُمُ الَّـــذينَ اخْلَصُوا في مَشْيِهِمْ]

فينبغي للسائر إلى الله تعالى أن يكونَ مخلصا في سيره، لأن من لم يخلص يُتعِبُ نفسهُ فيما فيه خُسرانُ. **قال مالك بن دينار**: «**قولوا لمن لم يكن صادقا لا يتعنَّى**»[30]، أي: لا يُتعب نفسه، لأنه يعمل فيما لا ينفعه، بل يَضُرُّه.

يقول ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[31]: «**العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا يثقله ولا ينفعه**». انتهى.

من ملأ جرابه بالرمل، فإنما يُثَقِّلُ نفسَه عن السير ولا يبلغ مراده. فلو أنَّ إنسانا سافر وأخذ معه الرمل، هل ينفعه؟ لا، بل يثقله ولا ينفعه. فإذا جاع، هل سيأكل التراب؟ أبدا... لو كان

30- «صيد الخاطر» (ص 288).

31- «الفوائد» (ص 62).

ليس معه شيء لكان أحسن، لأنه سيصل في وقت أسرع.

والإخلاص: تصفية القلب من إرادة غير الله تعالى [32].

قال شيخنا العصيمي وفقه الله ناظما هذا المعنى:

إخلاصُـــنا لله صـفٌّ القــلبَ مِنْ إرادةٍ سِــواهُ فــافـهَم يَـا فَـطِـــنْ

فقَلبُك إذا صفَّيتَه من كل مراد غيرِ الله جل وعلا، فإنك مخلص. وسيأتي إن شاء الله تعالى في هذه المنظومة، قول المصنف:

حَــرَكَاتُهُــمْ وَهُمُومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ للهِ لا لِلْــخَـلْقِ وَالشَّيْــطَـــانِ

فينبغي للعبد أن يكون لله وبالله ومع الله، وهذا هو الذي يصل يوم القيامة، لأن الصراط الذي يوصلك إلى الله متصل بالله[33]. ومن لم يكن عاملا لله انقطع ولم يصل، ولهذا قيل: «**ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل**» .

ومن بدائع ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [34]: «من أحب تصفية الأحوال، فليجتهد في تصفية الأعمال.

قال أبو سليمان الدَّاراني: من صفَّى صُفِّيَ له، ومن كدَّرَ كُدِّرَ عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ

32- من تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة، ولعله استفاد من تعريف القشيري للإخلاص قائلا: «**الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين**». ذكره عنه النووي في «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص 32)، و«المجموع شرح المهذَّب» (1/ 17).

وفي «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (ص 335): «**الإخلاص: خُلوصُ القلب من تألُّه سوى الله تعالى وإرادته ومحبته، فخَلَصَ لله، فلم يتمكن منه الشيطان**». وانظر: شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 13-14)، وأقوالا أخرى في تعريف الإخلاص عند «منزلة الإخلاص» من كتاب «مدارج السالكين» (1/ 459).

33- انظر: «مدارج السّالكين» (1/ 14).

34- «صيد الخاطر» (ص 12-13).

في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله». انتهى.

ولقد اشتد خوفُ السلف من الرياء، وذلك لعِظَمِ عنايتهم ومعرفتهم بالإخلاص.

قال ابن عُيَيْنة: لما حضرت محمد بن المنكدر الوفاة جزع فدَعوا له أبا حازم فجاء، فقال له ابن المنكدر: إن الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[الزمر: ٤٧]، فأخاف أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب. فجعلا يبكيان جميعاً.

فقال له أهله: دعوناك لتخفف عليه فزدته، فأخبرهم بما قال.

وكان سفيان الثوري يقول عند هذه الآية: **ويلٌ لأهل الرياء من هذه الآية.**

وهذا كما في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار؛ العالم والمتصدق والمجاهد.[35]

وعالمٌ بعلمِهِ لم يعمَلَنْ مُعَذَّبٌ مِن قبلِ عُبَّادِ الوَثَنْ

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[36]:

«**فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه.** فاللهَ اللهَ في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر». انتهى.

فينبغي للعبد أن يجاهد نفسه في طلب الإخلاص والثبات عليه، فالنية محلُّها القلبُ، والقلبُ يتقلَّبُ. وقديما قيل: «**من شهد في إخلاصِهِ الإخلاص، احتاج إخلاصُهُ إلى إخلاص**».

فنقصان كل مخلص في إخلاصه: بقدر رؤية إخلاصه، **فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص، صار مخلصًا مخلصًا.**[37]

35- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 456).

36- «صيد الخاطر» (ص 154).

37- انظر: «مدارج السالكين» (1/ 460) وما بعدها، فإنه مهم للغاية، **وفيه سبل الخلاص من رضا العبد بعمله وسكونه إليه.**

ومن ابتُلي بالعُجب، فليُفَكِّر في عيوبه وذنوبه.

قال ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [38]: «وإن أُعجبت بخيرك، فتفكر في معاصيك وفي تقصيرك وفي معايبك ووجوهه، فوالله لتجدنَّ من ذلك ما يغلب خيرك، ويعفى على حسناتك، فليطُل همك حينئذٍ، وأبدل من العجب نَقصا لنفسك». انتهى.

38- «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص 47).

الاتباع وموافقة السنة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الإِيمَانِ]

ذكر هنا الشرط الثاني لقبول العمل، وهو: الاتباع، فإن الله جل وعلا ذكر في آيات كثيرة أنه لا يقبل العمل إلا إذا كان على سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ١١١- ١١٢].

وقد فسر إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده وهو محسن بالعمل الصالح المشروع المأمور به. وهذان الأصلان جماع الدين أن لا نعبد إلّا الله وأن نعبده بما شرع لا نعبده بالبدع.[39]

يقول حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «سلم الوصول»**:

شَرْطُ قَبُولِ السَّعْيِ أنْ يَجْتَمِعَا   فِيهِ إِصَابَةٌ وَإِخْلَاصٌ مَعَا
لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ لَا سِوَاهُ   مُوَافِقُ الشَّرْعِ الَّذِي ارْتَضَاهُ

والعبد في إنما يدخل الإسلام بنطق الشّهادتين -لا إله إلّا الله محمّد رسول الله -:-

ومحصل هذه الشهادة: أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(39) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 514 – 515).

وعلى هذين الأصلين ينبنى الإسلام، وكلّ ما في الكتاب والسنة تفصيل لما تضمَّنه هذان الأصلان، وكل ما نافى هذين الأصلين فهو مناف للكتاب والسنّة، أجنبي عن دين الإسلام.[40]

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[41]:

وَكُنْ مُخْلِصًا لِلّٰهِ وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَا وَتَابِعْ رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ

وليس الشأن في العمل إنَّما الشأنُ في حفظ العمل مما يفسده ويُحبطه، فالرِّياء وإن دقَّ مُحبطٌ للعمل، وهو أبوابٌ كثيرة لا تُحصر، وكونُ العمل غيرُ مقيد باتّباع السنة أيضًا موجبٌ لكونه باطلا[42]. **ونَقَل العلامة عبد الرحمان بن حسن آل الشيخ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **الإجماع على ذلك، بقوله**[43]: «**ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة**». انتهى

ومن أقوال التابعي وهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا يكن همُّ أحدِكم في كثرةِ العَمَل، ولكن ليكن همُّه في إحكامِه وتَحسِينِه**، فإن العبدَ قد يُصَلِّي وهو يَعصي اللهَ في صلاته، وقد يَصومُ وهو يَعصي اللهَ في صيامِه»[44]. فمن جمع اللهُ له بين هذين الأصلين أفلح وسعد، ومن فاته الأمران (أي: الإخلاص والاتباع) أو أحد منهما خسِرَ خُسرانا مبينا، ومن كان تارة وتارة استحق من الخير والثواب والمدح بقدر إخلاصه ومتابعته قِلَّةً وكثرةً وقوةً وضعفاً...[45]

40- وانظر «رسالة الشّرك ومظاهره» للميلي (ص 63).

41- منظومة «منهج الحق منظومة في العقيدة والأخلاق» لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مع شرح الشّيخ عبد الرّزاق العبّاد (ص 57).

42- «الوابل الصيّب» (ص 9).

43- «فتح المجيد» (ص 404).

44- «صفة الصفوة» (1/ 422).

45- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 13) للعلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

منزلة الخوف والرجاء والمحبَّة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهُـــمُ الَّذِيـــنَ بَنَوا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ بَـيْـنَ الرَّجَـــا وَالخَـوْفِ لِلدَيَّـــانِ

ذكر هنا أن الذين يسيرون إلى الله جل وعلا قد بَنَوْا منازل سيرهم بين منزلتين عظيمتين، وهما: الخوفُ والرجاء. وسيكملهما الشيخ فيما سيأتي بمنزلة ثالثة، وهي: المحبة.

[بَـيْنَ الرَّجَـــا وَالخَوْفِ لِلدَيَّـــانِ]

لأن العبادة لا تقوم إلا على الخوف والرجاء.

وقد جمع الله بين هاتين المنزلتين في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله جل ذكره: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ١٦٥]، ومدح أنبياءه بأنهم: ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[فصلت: ٤٣]، وغير ذلك من الآيات التي لا تُحصَى إلا بكُلفة.

والخوف والرجاء متلازمان لا ينفك عنهما العبد، فكل راج خائف من فوات ما يرجوه، كما أن كل خائف راج أمنه مما يخاف.[46]

46- انظر: «الروح» لابن القيم (ص 305).

منزلة الرجاء

الرجاء: هو أمل يحدو العبد إلى الله جل وعلا طَمَعًا في حصول مطلوبه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ [47]: «**الرجاء**: حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو: الله والدار الآخرة، ويطيب لها السير». **ثم قال**: «**والرجاء يكون مع بذل الجُهد وحُسن التوكل**» [48]. انتهى

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]...

«**فمن كان رجاؤه هاديًا له إلى الطاعة، زاجرًا له عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالةً وتفريطًا، فهو المغرور**» [49].

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وكان الحسن يقول: إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي، وكذب، **لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل**.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعَلت الشملة ناراً على من غلها وقد

47- انظر: «مدارج السّالكين» (1/ 419)؛ و«الروح» لابن القيم (ص 305).

48- ولهذا عرَّفَ شيخنا صالح العصيمي الرجاء بقوله: «**أمل العبد بربه في حصول المقصود مع بذل المجهود وحسن التوكل**». انتهى (ص 4 من تعليقه على هذه المنظومة).

49- «الجواب الكافي» لابن القيم (ص 44)، وانظر فيه فصلا في «الذين اعتمدوا على عفو الله فضيَّعوا أمرَه ونهيه» (ص 32).

قتل شهيداً.

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرَج بنعم الله عليه وهو لا يعلم. ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

قال ابن القيم [50]: «**ومما ينبغي أن يُعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:**

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات...

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾[المؤمنون: ٥٧ – ٦١]...». إلى آخر ما قال عليه رحمة الله ورضوانه.

قيل لوهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنا نرجو، فقال: «**فلا والله ما رجا عبد قط حتى يخاف**، ثم قال: كيف تجترئ أن ترجو رضا من لا يُخاف غضبه إنما كان الراجي خليل الرحمن إذ يخبرك الله ﷻ عنه، قال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾[البقرة: ١٢٧]، ثم قال:

50- «الجواب الكافي» (ص 45). وانظر فصلا نافعا في «الفرق بين الرجاء والتمني» في آخر كتاب «الروح» له (ص 304).

﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢]» [51]. **فعلى العبد أن يعمل، وعليه أن يرجو ويطمع، فبالعمل والطمع يحصُلُ له النَّجاح** [52].

منزلة الخوف

الخوف: هو فرار القلب من الله جل وعلا فزعا منه.

وصفة الخوف من الله تعالى هي أجمع صفات الخير في الإنسان؛ لأنها صفة للملائكة المقربين، كما قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[النحل: ٥٠]. [53]

قال ابن أبي العزّ الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [54]: «فالرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا، **وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى فإنك إذا خفته هربت إليه فالخائف هارب من ربه الى ربه**». انتهى.

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[الذاريات: ٥٠].

قال العلامة ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ [55]: «كل ما يُصيبُ الإنسان من مِحَن الدنيا ومصائبها وأمراضها وخصوماتها ومن جميع بلائها، لا ينجيه من شيء منه إلا فراره إلى الله». انتهى.

وسمَّى الله الرجوع إليه فرارًا، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز.

فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلى الله تعالى،

51- «صفة الصفوة» (1/ 422).

52- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 199) للعلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

53- «تتمة أضواء البيان» للشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (9/ 180).

54- «شرح الطّحاويّة» (ص 237).

55- «الآثار» (2/ 97).

فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه.[56]

ومنزلة الخوف من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد.

قال تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال جَلَّجَلَالُهُ:﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]...

والخوف ليس مقصودا لذاته، بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.[57]

ولن يستقيمَ العبدُ في سيره إلى الله إلا إذا استصحبَ منزلتي الرجاء والخوف. فالرجاء يعصمك من القنوط من رحمة الله، والخوف يعصمك من الأمن من مكر الله، وإذا اختل أحدهما تضرَّرَ سير العبد، وربما انقطع.

قال ابن رجب [58]: «ولما كان الخوف كالسَّوط، فمتى ألحَّ بالضرب بالسَّوط على الدابة تلفت، فلا بد لهذا الضرب من حادي الرجاء، يطيِّب لها السير بحدائه حتى تقطع». انتهى.

وبوَّبَ البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، «باب: الرجاء مع الخوف».

قال بعض السَّلَف: الرجَاءَ قائد والخوف سائق، والنفس بينهما، كالدابة الحَرون.

فمتى فتر قائدها وقصَّر سائقها وقفت فتحتاج إلى الرفق بِهَا والحدو لها حتى يطيب لها السير.[59]

56- «تفسير ابن سعدي» (ص 958).

57- انظر: «مدارج السالكين» (1/ 381 وما بعدها) باختصار. وانظر: «منزلة الفرار إلى الله» (1/ 348).

58- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 443).

59- المرجع السابق (1/ 443).

يقول العلاّمة حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في قصيدته «الميمية في الوصايا والآداب العلمية»** [60]:

واقْــنُتْ وبينَ الرَّجَا والْخَوْفِ قُمْ أَبَدًا ... تَخْشَى الذنُوبَ وتَرْجُو عَفْوَ ذَي الكَـرَمِ
فالخوفُ ما أَوْرَثَ التقوَى وحَثَّ عَلى ... مَرْضــاةِ رَبّـي وهَجْــرِ الإِثْمِ والأَثَــمِ
كَــذا الرَّجَا ما عَلى هذا يحِثُّ لِــتَصْ ... دِيــقٍ بِمَــوْعودِ رَبِّي بالْجَــزَا العَظِــمِ
والْخَــوْفُ إنْ زادَ أفْضَى لِلْقُنُوطِ كَما ... يُفْضِي الرَّجـاءُ لأَمْــنِ الْمَــكْرِ والنِّقَــمِ
فَــلا تُفَـرِّطْ ولا تُفْــرِطْ وكُنْ وَسَطًا ... وَمِــثْلَ مَــا أَمَــرَ الرَّحْمَــنُ فاسْتَقِــمِ

والخوف والرجاء لا يتمّان إلا بمنزلة ثالثة وهي: منزلة الحب.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [61]: «**القلب في سيره إلى الله** ﷻ **بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه،** فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف». انتهى.

وَكُــنْ سَائِـرًا بَـيْنَ الْـمَـخَـافَةِ وَالرَّجَـا ... هُمَا كَـجَنَـاحَـيْ طَـائِرٍ حِـينَ تَـقْصِـدُ [62]

60- (ص 250-253) مع شرح الشيخ عبد الرّزاق العبّاد.

61- انظر: «مدارج السّالكين» (1/ 386).

62- من منظومة «منهج الحق» لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 61 من شرح عبد الرزاق العباد للمنظومة).

منزلة المحبة

ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها:

وَهُـــمُ الَّـــذينَ مَلا الإلَهُ قُلُوبَهُمْ ... بِــوِدَادِهِ ومــحَـبَّــةِ الـرَّحمـــنِ

فهؤلاء الذين خافوا الله ورجَوْه لا يستقيم سيرهم إلا إذا أحبوا الله جل وعلا وأقبلوا عليه بقلوبهم.

ولا تُحدُّ المحبة بحد أوضحَ منها. فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء.[63]

ولهذا يقول العلامة محمد مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[64]: «والمحبّة من المعاني الّتي يلتبس شرعيّها بشركيّها، وتدخل في العقائد الباطنة...». انتهى.

ومع هذا، عرفها بعض أهل العلم بقولهم:

الحب: تعلق القلب بالله جل وعلا[65].

والوِدَادُ: صَفْوُ المَحَبَّة وخالِصُها ولُبُّها وأَلْطَفُهَا وَأَرَقُّهَا[66].

ومن أسماء الله تعالى «الوَدُودُ»، أي: الذي يحب أنبياءه ورسله، وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم

63- انظر: «مدارج السّالكين» (2/ 218)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 89).

64- انظر: «رسالة الشرك ومظاهره» (ص 261).

65- هكذا عرفها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للمنظومة (ص 16)، وزاد شيخُنا العصيمي على هذا التعريف، فقال: «**المحبة: تعلق القلب بالله، ودوام ملاحظة مرضاته**». (ص 5 من تعليقه على هذه المنظومة).

66- انظر **مراتب المحبة** في: «مدارج السّالكين» (2/ 232-235)؛ و«روضة المحبين» (ص 28-58)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (ص 88).

إليه وُدًّا، وإخلاصا، وإنابة من جميع الوجوه.[67]

وفي «نونية» ابن القيم:

وَهـوَ الـوَدُودُ يُـحِـبُّـهُم وَيُـحِـبُّهُ أحـبابُـهُ والفـضـلُ لِلْـمَـنَّـانِ

وهوَ الَّـذي جَـعَـلَ المَـحَبَّـةَ في قُلُو بِـهِـمُ وَجَـازَاهُم بِـحُـبٍّ ثَـانِ

«**ومنزلة الحب هي أصل المنازل كلها**، ومنها تنشأ جميع الأعمال الصالحة والنافعة، والمنازل العالية»[68].

وهي كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [69]: «المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون. فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون. وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام» ... انتهى.

يقول شيخ الإسلام [70]: «**بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا من محبة الله**». انتهى.

والله جل و علا يُحِبُّ ويُحَبُّ. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، **وأخبرَ النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أن عليا** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **يُحبُّ الله**

67- انظر: «تفسير ابن سعدي» (ص 1115)؛ و«النهج الأسمى في شرح الأسماء الحسنى» (1/ 419-429) للنَّجدي.

68- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 16).

69- «مدارج السّالكين» (2/ 215).

70- «الفتاوى» (10/ 33).

ورسولَه، ويُحبُّهُ اللهُ ورَسولُه[71]. أما من أنكر المحبة من أهل البدع، فإنهم فرَّغوا قلوبَهم من حب الله جل وعلا، ولهذا كانوا أوحشَ الناس قلوبا. ولهذا أقرب الناس إلى ربهم هم أهل السنة والجماعة، لأنَّهم هُم الذين اعتقدوا في ربهم الاعتقاد الصحيح الذي يحدو بهم نحو مزيد من العلم والعمل.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[72]: «وإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين، ولكونه إله العالمين. وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود». انتهى.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[73]: «فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة. ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب». انتهى.

وعن الحسن بن أبي جعفر، قال: سمعت عتبة الغلام يقول: «**من عرف الله أحبه، ومن أحب الله أطاعه، ومن أطاع الله أكرمه، ومن أكرمه أسكنه في جواره، ومن أسكنه في جواره فطوباه، وطوباه، وطوباه**».

فلم يزل يقول: «**وطوباه، وطوباه**» حتى خر ساقطا مغشيا عليه.

71- رواه البخاري كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ فَضْلِ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ، رقم (2847)، ومسلم كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رقم (34/ 2406) من حديث سهل بن سعد السَّاعدي.

72- «الفتاوى» (10/ 47).

73- «مدارج السّالكين» (2/ 224).

وقال بديل بن ميسرة: «**من عَرَفَ ربَّه أحبه، ومن عَرَفَ الدنيا زَهِدَ فيها**».

وفي «القصيدة النونية»:

عَـرَفُوهُ بالأَوصَافِ فَامتَلأَتْ قُلُو ... بُهُمُ لَـهُ بالحُـبِّ والإيمَـانِ

فَـتَطَايَرَت تلك القُلوبُ إليه بالـ ... أشواقِ إذْ مُلِئَـت مِن العِرْفَـانِ

وَأَشَـدُّهُـم حُـبًّا لَهُ أَدْرَاهُـمُ ... بِصِفَاتِـهِ وحَقـائِقِ القُـرآنِ

فَـالحُـبُّ يَتبَعُ للشُّعورِ بِحَسبِهِ ... يَـقْوَى وَيَضعُفُ ذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ

وَلِـذَاكَ كَانَ العَارِفُونَ صَـفَاتِهِ ... أَحْبَـابَهُ هُـم أَهلُ هَذا الشَّـانِ

وَلِـذَاكَ كَانَ العَـالِمُونَ بِـرَبِّـهِمْ ... أَحْبَـابَـهُ وَبِشِـرْعَةِ الإِيـمَانِ

وَلِـذَاكَ كَانَ المُنكِرُونَ لَهَا هُـمُ الـ ... أَعْـدَاءُ حَقًّـا هُمْ أُولُو الشَّنَـآنِ

وَلِـذَاكَ كَانَ الجَاهِلُـونَ بِذَا وَذَا ... بُـغَضَـاءَهُ حَقًّـا ذَوِي الشَّنَـآنِ

ومع هذا، فلا يستقيم الحبُّ إلا مع الخوفِ والرجاءِ، ولكل منزلة من هذه المنازل حدٌّ لو جاوزته لوقعَ العبدُ فيما لا يرضاهُ الله تعالى. وإنما يصحُّ السيرُ إلى الله إذا وُجد قدرٌ من كل معنى من هذه المعاني الثلاثة.

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [74]: «**العبادة تبنى على ثلاثة أصول**: الخوف والرجاء والمحبة. **وكل منها فرض لازم ، والجمع بين الثلاثة حتم واجب**، فلهذا كان السلف يذمون من تعبد الله بواحد منها وأهمل الآخرين، فإن بدع الخوارج ومن أشبههم إنما حدثت من التشديد في الخوف، والإعراض عن المحبة والرجاء، وبدع المرجئة نشأت من التعلق بالرجاء وحده والإعراض عن الخوف، وبدع كثير من أهل الإباحة والحلول ممن ينسب إلى التعبد نشأت من إفراد المحبة والإعراض عن الخوف والرجاء». انتهى.

74- «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (1/ 161-162) ضمن «مجموع الرسائل».

وقال ابن القيم [75]: «الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، **والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح**». انتهى.

وما أجمل قول أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [76]: «**اعلم أن محركات القلوب إلى الله** ﷻ **ثلاثة** : المحبة والخوف والرجاء. **وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة**. قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس: ٦٢]. **والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق. فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه**، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، **والرجاء يقوده**.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره». انتهى.

الأسباب الجالبة لمحبة الله للعبد

ومن الأسباب تُستَجلَبُ بها مَحَبَّةُ ربِّ الأَربَابِ [77]:

- معرفة الله تعالى ومطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها.
- معرفة نعمة الله على عباده، ومشاهدة بره وإحسانه.
- معاملة الله بالصدق والإخلاص، وإيثار محاب الله على محاب العبد، ومخالفة الهوى.

75- «الفوائد» (ص 98).

76- «مجموع الفتاوى» (1/ 73-74).

77- انظر: «مدارج السّالكين» (2/ 223-224)، و«زاد المعاد» (2/ 5-8)، و«استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (1/ 185-194) ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب»، و«جامع العلوم والحكم» عند شرح حديث الولي (رقم 38) (ص 552).

- إنكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.
- الخلوة به وقت النزول الإلاهي لمناجاته، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.
- مجالسة المحبين الصادقين.
- التفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء.
- دوام الذكر مع حضور القلب.
- قراءة القرآن بتدبر وتفهم لمعانيه وما أريد منه.
- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.
- تذَكُّر ما وَرَدَ في الكتاب والسنة من رؤية أهل الجنة لربهم.
- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمن هذه الأسباب وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

وملاك ذلك كله أمران:

استعداد الروح لهذا الشأن،

وانفتاح عين البصيرة.

وبالله التوفيق.[78]

78- «مدارج السالكين» (2/ 224).

منزلة الذكر

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهُـمُ الَّذيـنَ قَدَ اكْثروا مِنْ ذِكْرِهِ في السِّـرِّ والإعْـلانِ وَالأَحْـيَـانِ

ذكر في هذا البيت أن هؤلاء القوم مِن حُبِّهم لله جل وعلا، أكثروا من ذكره سبحانه، لأنَّ مَن أحبَّ شيئا أكثر من ذكره.

قال الربيع بن أنس عن بعض أصحابه: علامة حب الله كثرةُ ذكره، فإنك لن تحبَّ شيئا إلا أكثرت ذكره.

وقال فتح الموصلي: المحب لله لا يغفل عن ذكر الله طرفة عين.

وقال ذو النون: من اشتغل قلبه ولسانه بالذكر، قذف الله في قلبه نور الاشتياق.[79]

فالمُحِبُّون إذا نَطَقُوا نَطَقُوا بالذِّكر، وإذا سَكَتوا انشغلوا بالفِكر.[80]

وفي هذا يقول ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[81]: «لو صحّت محبّتك لاستوحشت ممّن لا يذكّرك بالحبيب. واعجباً لمن يدعي المحبة ويحتاج إلى من يذكره بمحبوبه، فلا يذْكُره إلا بمذكِّر! أقل ما في المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب». انتهى.

والذكر: إعظامُ الله وحُضُورُه في القلب واللِّسان أو أحَدِهما.[82]

79- انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 680).

80- «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» (1/ 154-155) ضمن «مجموع الرسائل».

81- «الفوائد» (ص 97).

82- من تعليق شيخنا العصيمي على رسالته «الباقيات الصالحات من الأذكار بعد الصَّلوات» (ص 3).

=

منزلة الذكر منزلة شريفة عظيمة وهي برهان من براهين المحبة. ولهذا أردف الشيخ منزلة المحبة وما قبلها من الخوف والرجاء بهذا البيت، **فقال:**

وَهُــمُ الَّذيــنَ قَدَ اكْثروا مِنْ ذِكْرِهِ   فِي السِّــرِّ والإعْـلانِ وَالأَحْـيَـانِ

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الأحزاب: ٤١ - ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة: ١٥٢]، وقال جل شأنه: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[الزخرف: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[الرعد: ٢٨]... في آيات كثيرة.

ومنزلة الذكر، هي: منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائما يترددون.[83]

قال ابن سعدي [84]: «**ومن أعظمِ مقويات الإيمان ومُغَذياته:** اللَّهَجُ بذكر الله والإكثار من دعائه والإنابة إليه في السراء والضراء...». انتهى.

=

وفي «فتاوى اللجنة الدائمة» (24/ 170): «**ذكر الله سبحانه عام، يشمل:** فعل الأوامر، واجتناب النواهي، ويشمل: التسبيح والتهليل والتحميد جهرًا وسرًا، وقراءة القرآن ونحو ذلك مما شرعه الله من الأقوال والأفعال، وليس منه الطبل والتصفيق والذكر الجماعي، بل ذلك بدعة لا يجوز». انتهى.

83- «مدارج السّالكين» (2/ 138).

84- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 61).

وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبد الله بن بُسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**».[85]

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَجَزَ مِنْكُمْ عَنِ اللَّيْلِ أَنْ يُكَابِدَهُ، وَبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وَجَبُنَ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ يُجَاهِدَهُ، فَلْيُكْثِرْ ذِكْرَ اللهِ**».[86]

قلت: وفيه إشارَةٌ إلى تَعَدُّد أبوابِ الخير، وأنَّ اللهَ يَفتَحُ على عبادِه بما شاء كيف شاء، سُبحانه.

والأحاديث في باب الذكر كثيرة[87].

شكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه، فقال: أدنه من الذكر. وقال: القلوب الميتة تحيا بالذكر، كما تحيا الأرض الميتة بالقطر[88].

بِـذِكْـرِ اللهِ تَـرْتَـاحُ القُـلُـوبُ وَدُنْـيَـانَا بِـذِكْـرَاهُ تَطِيـبُ

قال عبدُ الله بن عَوْن: «ذِكْرُ النَّاسِ داء، وذِكْرُ اللهِ دواء».

85- رواه أحمد (29/ 226) رقم 17680، والترمذي (5/ 457) رقم 3375، وابن ماجه (4/ 707) رقم 3793، وابن حبان في صحيحه (3/ 96) رقم 814 ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم 1491) و«الكلم الطيب» (رقم 3).

86- رواه الطبراني والبزار، واللفظ له، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم 1496).

قلت: وهذا الحديث هو الذي ختم به ابن رجب زياداته على «الأربعين النووية».

87- **انظر على سبيل المثال فصلا في**: «فضل الذكر والحث عليه» في كتاب «رياض الصالحين» للحافظ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، **وفصلا في**: «الترغيب في الإكثار من ذكر الله تعالى سر وجهرا والمداومة عليه، وما جاء فيمن لم يكثر ذكر الله تعالى» في كتاب «صحيح الترغيب والترهيب» (2/ 202-207).

88- «لطائف المعارف» للحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 19).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الوصية الصُّغرى»[89] التي أوصى بها أبا القاسم التّجيبي المغربي: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض: فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، **لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائما هو أفضل ما شَغَل العبدُ به نفسَه في الجملة...**». ثم ذكَر الأدلة على ذلك، **وخَتَمَ بقوله: «والدلائل القرآنية والإيمانية بَصَرا، وخَبَرا، ونَظَرا، على ذلك كثيرة»**. انتهى.

واعلم أنَّ صدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، **وجلاؤه بشيئين**: بالاستغفار والذكر [90].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأن أسبح لله تعالى تسبيحات أحب إلى من أنفق عددهن دنانير في سبيل الله ﷻ». **وقال عبيد بن عمير**: «تسبيحة بحمد الله في صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجري ذهبا». **وقال بعض السلف**: «ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك».

قام رجل إلى ابن المبارك في جنازة فسأله عن شيء، فقال له: «يا هذا سَبِّح، فإنَّ صاحبَ السرير مُنِعَ من التسبيح» [91].

قال كعب: من أكثر ذكر الله برئ من النفاق.

ويشهد لهذا المعنى أن الله وصف المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلا، فمن أكثر ذكر الله فقد باينهم في أوصافهم، **ولهذا خُتِمَت سورة المنافقين بالأمر بذكر الله**، وأن لا يُلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد، وإن من ألهاه ذلك عن ذكر الله فهو من الخاسرين.[92]

89- «الفتاوى» (10/ 660).

90- «الوابل الصيب» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 41).

91- «أهوال القبور» لابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 16).

92- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 680).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

والمصنف أشار إلى أن الذكر يكون في كل وقت، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[في السِّرِّ والإعْـلانِ وَالأَحْيَــانِ]

أي أنهم يذكرون اللهَ تعالى في السِّرِّ والعَلَن، وفي كل حِينٍ أي: زمَن، وهذه هي حال المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٩١].

وهكذا كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، كما قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: «**كان رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يذكرُ اللهَ على كل أحيانه**».[93]

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا ذَكَرْتَنِي خَالِيًا ذَكَرْتُكَ خَالِيًا، وَإِذَا ذَكَرْتَنِي فِي مَلإٍ، ذَكَرْتُكَ فِي مَلإٍ خَيْرٌ مِنَ الَّذِينَ تَذْكُرُنِي فِيهِم**».[94]

قال عبد الله بن أبي الهذيل: «إن الله ليحب أن يُذكر في السوق، ويحب أن يذكر على كل حال، إلا في الخلاء».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **معلقا على هذا الأثر** [95]: «ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء والمراقبة والنعمة عليه في هذه الحالة وهي من أجلِّ الذكر، **فذكر كل حال بحسب ما يليق بها،**

93- رواه البخاري -مُعَلَّقًا- كِتَابُ الأَذَانِ، بَابٌ: هَلْ يَتَتَبَّعُ المُؤَذِّنُ فَاهُ هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَهَلْ يَلْتَفِتُ فِي الأَذَانِ، ومسلم كِتَابُ الْحَيْضِ، بَابُ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى فِي حَالِ الْجَنَابَةِ وَغَيْرِهَا، رقم (17/ 373).

94- رواه البزار، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم 1489).

واللائق بهذه الحال التقَنُّعُ بثوب الحياء من الله تعالى وإجلاله وذكر نعمته عليه وإحسانه إليه في إخراج هذا العدو المؤذي له لو بقي فيه لقتله». انتهى.

=

95- «الوابل الصيب» (ص 68). وانظر « كتاب الأذكار» للنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 12).

القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات

أجابَ عن هذا الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بقوله**[96]: «**إذا واظب على الأذكار المأثورة**[97]**، المثبتة صباحًا ومساء في الأوقات والأحوال المختلفة، ليلاً ونهارًا**، وهي مبينة في كتاب: «عمل اليوم والليلة»، **كان من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، والله أعلم**». انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الوصية الصُّغرى»[98]: «**وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة مثل ما يقال عند الأكل، والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل، والمسجد، والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر، والرعد، إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بـ«**عمل اليوم والليلة**».

ثم ملازمة الذكر مطلقا وأفضله: «**لا إله إلا الله**». وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: «**سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله**» أفضل منه.

ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله.

ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسا يتفَقَّه، أو يُفَقِّه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقها فهذا أيضا من أفضل ذكر الله». انتهى.

96- انظر « كتاب الأذكار» للنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 12).

97- أي ما أُثر من الذكر عن الشارع. قاله ابن علان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

98- «الفتاوى» (10/ 660).

وقد ذكر ابن رجب [99] أنَّ **مجالسَ الذكر لا تختص بالمجالسِ التي يُذكر فيها اسمُ الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوِه، بل تشمل ما ذُكر فيه أمرُ الله ونهيه وحلاله وحرامه وما يحبه ويرضاه،** فإنه ربما كان هذا الذكرُ أنفعَ من ذلك، لأنَّ معرفةَ الحلال والحرام واجبةٌ في الجملة على كل مسلم، بحسب ما يتعلق به في ذلك، وأما ذكرُ الله باللسان، فإن أكثرَه يكون تطوعًا، وقد يكون واجبًا كالذكر في الصلوات المكتوبة.

99- «مجموع الرسائل» (2/ 295).

ذكر الله لا ينقطع حتى في الجنة

ذكر الله جل وعلا هو ملاك الأمر، وهو العبادة التي لا تنقطع حتى في الجنة، فإنَّ أهل الجنة يُلهمون التسبيحَ والذكر كما يُلهمون النَّفَسَ. وهذه عبادة تلَذُّذٍ، لا عبادة تكليف، فإنَّ التكليف انقطع بدخول الجنة.

«فالأعمال كلها يفرغ منها، والذكر لا فراغ له ولا انقضاء؛ والأعمال تنقطع بانقطاع الدنيا ولا يبقى منها شيء في الآخرة، والذكر لا ينقطع. **المؤمن يعيش على الذكر ويموت عليه وعليه يبعث**».[100]

أَحَسِبتُمُ أَنَّ اللَّيَالِي غَيَّرَت عَهدَ الهَوَى لاَ كَانَ مَن يَتَغَيَّرُ
يَفنَى الزَّمَانُ وَلَيسَ يَفنَى ذِكْرُكُم وعَلَى مَحَبَّتِكُمْ أَمُوتُ وَأُحْشَرُ

وهاهنا فائدة لطيفة شريفة ذكرها الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «**استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس**» -وهي رسالة عظيمة في هذا الباب-، قال: «فإن أعلى نعيم في الجنة ما يحصل فيها من معرفة الله ومشاهدته، فإن علم اليقين يصير هناك عين اليقين، وتتجدد معرفة عظيمة لم تكن موجودة قبل ذلك؛ بل ولم تخطر على قلب بشر، **وكذلك توحيد أهل الجنة ودوام ذكرهم هو من أكمل لذاتهم، ولذلك يُلهمون التسبيح، كما يُلهمون النَّفَس.**

قال ابن عيينة: «لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا».

وكذلك تَرَنُّمُهُم بالقرآن وسماعه، وأعلاه سماعه من الله ﷻ، فأين هذا من تلاوة أهل الدنيا وذكرهم؟ وأما سائر العبادات فما كان منها فيه مشقة على الأبدان، فإن أهل الجنة قد أسقط ذلك عنهم؛ وكذلك ما فيه نوع ذُل وخُضوع كالسجود ونحوه.

100- «لطائف المعارف» لابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 403).

وأما ما في العبادات من النعيم الحاصل بها لأهل المعرفة في الدنيا، فإنه يحصل لهم في الجنة أضعافا مع راحة الجسد من مشقة التكاليف التي في الدنيا، **فتجتمع لهم راحة القلب والبدن على أكمل الوجوه.**

وهذا مثل الصلاة، فإن العارفين في الدنيا إنما يتنعمون بما فيها من المناجاة وآثار القرب، وما يرد عليهم من الواردات في تلاوة الكتاب، ونحو ذلك من نعيم القلوب، وربما يستغرقون به عن الشعور بتعب الأبدان، فهذا القدر الذي حصل لهم به التنعم في الدنيا يتزايد في الجنة بلا ريب، لا سيما في أوقات الصلوات؛ فإن أكملهم من ينظر إلى وجه الله ﷻ كل يوم مرتين، بكرة وعشية، في وقت صلاة الفجر وصلاة العصر، وإلى ذلك أشار النبي بالمحافظة على هاتين الصلاتين عقب ذكره رؤية الرب سبحانه في حديث جرير البجلي.

فالنعيم الحاصل لأهل الجنة بالرؤية والمخاطبة في هذين الوقتين أكمل مما كان حاصلا في الدنيا، وكذلك صلاة الجمعة فإنهم يجتمعون في وقتها في يوم المزيد ويتجلى لهم سبحانه ويحاضرهم محاضرة.

فتبين بهذا أن نعيم الجنة أكمل من نعيم الدنيا مطلقا، وسواء في ذلك نعيم الأبدان بالأكل والشرب والجماع، ونعيم القلوب والأرواح بالمعارف والعلوم والقرب والاتصال والأنس والمشاهدة.

فظهر بهذا أن قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[النمل: ٨٩]، هو على ظاهره من غير حاجة إلى تأويل ولا تكلف؛ فإن كثيرا من المفسرين فسروا الحسنة بكلمة التوحيد والجزاء عليها بالجنة، ثم استشكلوا تفضيل الجنة على التوحيد، وبما ذكرناه يزول الإشكال.

ويتبين أن التوحيد الذي في الجنة أكمل من التوحيد الذي في الدنيا، وهو جزاء له، وكذلك المعرفة والمحبة والشوق أيضا...»[101]. انتهى.

ومن لطيف ما ذُكِرَ عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنه قال**: «ما يمنع أحدكم يكون جالسا، أن يقول للملك الذي يكتب، اكتب يرحمك الله». ثم يُسبح، ويذكرُ الله، فيغتنم الأوقات بأفضل الطاعات.

فإذا كنت خاليا، فلتصرف الوقت في ذكر الله، فإن الذكر غَرس الجنة.

وفي الذكر أكثر من مائة فائدة، أفاض في ذكرها والتدليل عليها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه «**الوابل الصَيِّب من الكَلِمِ الطَيِّب**»[102]، حتى ذكر منها نحوا من ثمانين فائدة، فليُراجَع فإنه مفيد جدا، ولا يستغني عنه مسلم، بَلْهَ طلاب العلم...

وللناظم العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ منظومة لطيفة بعنوان: «**منهج الحق في العقائد والأخلاق**»[103] ضمَّنَها أبياتا في فضائل ذكر الله تعالى. وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأبيات في شرحه لهذه المنظومة، فقال[104]: **ولي من الأبيات:**

وَكُــنْ ذَاكِــرًا الله في كُلِّ حَالَــةٍ ... فَلَــيْسَ لِذِكْــرِ الله وَقْــتٌ مُقَيَّــدُ
فَــذِكْرُ إِلــهِ العَرْشِ سِرًّا وَمُعْــلَناً ... يُــزَيْلُ الشَّقَا والهَمَّ عَنْكَ وَيَــطْرُدُ
وَيَــجْلِــبُ لِلخَيْرَاتِ دُنْيًا وَآجِلاً ... وَإِنْ يَــأْتِكَ الوَسْوَاسُ يَومًا يُشَرِّدُ
فَــقَدْ أَخبَرَ المُخْتَارُ يَوْمًا لِصَــحبِهِ ... بِــأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ في السَّبْقِ مُفْــرَدُ

101- «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (1/ 231-233) ضمن «الرسائل» باختصار.

102- (ص 41-94).

103- وهي قصيدة دالية، شرحها الشيخ عبد الرزاق العباد البدر وفقه الله.

104- انظر: شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 18-20).

وَوَصّـــى مُـعَاذًا يَسْتَعِيْنُ إِلهَـــهُ عَـلَى ذِكرِهِ وَالشُّكرِ بالحُسْنِ يَعْبُـدُ
وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قد أَتَى لِنَصِيْحَةٍ وَقَـد كَانَ في حَمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَـدُ
بـــأَنْ لا يَـزَلُ رَطْبًا لِسَانُك هَذه تُـعِيْنُ عَلى كُلِّ الأُمُورِ وَتُسْعِـــدُ
وَأَخْـبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لأَهْلِـــهِ بِجـَنَّاتِ عَدْنٍ وَالمَسَاكِنُ تُمْهَـــدُ
وَأَخْـــبَرَ أَنَّ الذِّكْرِ يَبْقَى بِجَنَّـــةٍ وَيَنْقَـطِعُ التّكْلِيْفُ حِـيَنْ يُخَـلَّـــدُ
وَلَـــوْ لَمْ يَكُن في ذِكْرِهِ غَيْرَ أَنَّـــهُ طَـرِيْقٌ إِلى حُبِّ الإِلهِ وَمُرْشِـــدُ
وَيَـنْـهَى الفَتىَ عَنْ غِيْبَةٍ وَنِمَيْمَةٍ وَعَـنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُـفْسِـدُ
لَـــكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيْمٌ وَرَغْبَـةٌ بِـكَثْرَةِ ذِكْـرِ الله نِـعْمَ المُوَحَّـــدُ
وَلَـكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْـــرُنَا كَـمَا قَـلَّ مِنَّـا لِلإِلهِ التَّـعَـبُّـــدُ

وهذه الأبيات واضحة المعاني، ولله الحمد.

ومما نبه عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في هذه الأبيات**: أنه لو لم يكن في الذكر إلاَّ أنه يقربك إلى الله، وينهاك عن الاشتغال بغير ذلك من الغيبة والنميمة، لكان فيه الخير العظيم.

ولن تُرغم شيطانَك بمثل إرغامه بذكر الله جل وعلا، خاصة في الخلوات. فإن كثرة الاختلاء بالنفس إذا لم يَصحَبها ذكر الله، حارت وحادت بك إلى الوَساوِسِ، لأن العبد إذا خلا بنفسه خلا به الشيطان، فإن لم تعمر وقتك بالطاعة، شَغَلَكَ هو بالوَساوِس التي تَضُرُّ بدينك ودنياك، والنفسُ إن لم تشغلها شَغَلَتك.

والواقع أوضح شاهد على ما ذكرنا. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فعل الطاعة وترك المعصية

بعد أن ذكر منزلة الذكر، **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمَلِيْكِ بِفِعْلِهِمْ طاعاتِهِ وَالتَّرْكِ للعِصْيَانِ

فهم في سيرهم يتقربون إلى الله مَلِيكِهم[105] بأمرين:

- بفعل الطاعة،
- وترك المعصية.

وهما ملاك الأمر، فالتقوى كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعالى**[106]: «ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن **تقوى الله: تركُ ما حرَّمَ الله، وأداءُ ما افترض الله**، فَمن رُزِقَ بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير».

وقال الحسن: «المتقون: اتقوا ما حرَّم الله عليهم، وأدَّوْا ما افترضَ الله عليهم».

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الذكرُ طاعةُ الله، فمن أطاعَ اللهَ فقد ذَكَرَه، ومن لم يُطعه فليس بذاكر، وإن أكثرَ التَّسبيحَ وتلاوةَ القُرآن**».[107]

105- فالله مالِك مَلِك مَلِيك، له الملك كلُّه سبحانه.

106- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 247).

107- «صفة الصَّفوة» لابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (2/ 45). وانظر: «فتح الباري» (13/ 675) عند شرح آخر حديث من البخاري، وفيه أن ابنَ بطال قال: «هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر إنما هي لأهل الشرف في الدين، والكمال كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام، **فلا تظن أن من أدمن الذكر وأصر على ما شاءه من شهواته وانتهك دين الله وحرماته أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين**، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح». انتهى.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢]، أي: الطاعة والذل والخضوع له دائما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال ذلك جماعة من السلف.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[108]: «**فأفضل ما استُجلِبَت به محبَّة الله** ﷻ **فِعلُ الواجبات وتركُ المُحَرَّمات**». انتهى.

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٣ –١٢٥].

فمن كان مقتصراً على الفرائض، ولكنه مُراعٍ لحدود الله جل وعلا، خيرٌ من الذي يُكثر من النوافل ولكنه يُصرُّ على المعاصي. فالعبد لن يسير إلى الله جل وعلا بمثل فعل الطاعة وترك المعصية، لأنهما ملاك الأمر.

---

108 – «مجموع الرسائل» (1/ 153).

لا وَلاية ولا كَرَامة إلا بلزوم طريق الاستقامة

فرأس الفلاح هو امتثال الأمر وترك النهي. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧ – ٧٨].

وعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ الله الثَّقَفِي قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بعدك. قَالَ: «**قُلْ آمَنْتُ بِالله ثُمَّ اسْتَقِمْ**» [109].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ [110]: «**والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم**، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشمل ذلك فعل الطَّاعات كلَّها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلَّها كذلك». انتهى.

وكأن الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يُشير إلى أن من لم يستقم على شرع الله جل وعلا ليس وليا لله، وليس سائرا إلى الله جل وعلا السير الذي يبلِّغُهُ المقصد.

فإن من غُلاة الصوفية من قال: إذا بلغت درجة اليقين، سقطت عنك التكاليف. فأراد الشيخ بهذا البيت أن بين أن السائر إلى الله لا ينقطع عن فعل الطاعة وترك المعصية إلى أن يموت.

109- رواه أحمد (24/ 141) رقم 15416، وابن حبان في صحيحه (3/ 221) رقم 942. قال الشيخ الألباني: (صحيح)، انظر حديث رقم: 4395 في صحيح الجامع. ورواه مسلم بلفظ «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ» رقم (62/ 38).

110- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 324).

فمن ظن أنه يصل إلى الله جل وعلا بغير هذا الطريق، فإنه كافر، لأنه خالف الكتاب والسنة، بل أنكر الكتاب والسنة اللذين يحثان على فعل الطاعة وترك المعصية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [111]: «**مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ طَرِيقًا إلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فَهُوَ كَافِرٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ**». انتهى.

ولذلك ذكر العلماء أن من ظن أنه تسقط عنه التكاليف يوما من الأيام أنه كافر بالاتفاق، وهو زنديق من الزنادقة.

وهذا الأمر وقع من بعض المتصوفة عِياذًا بالله تعالى من هذا الكفر.

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عند قول الله جل وعلا:** ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر: ٩٨ –٩٩]:

«ويستدل بهذه الآية الكريمة –وهي قوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾– على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا فيصلي بحسب حاله...

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة [112]، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. **وهذا كفر وضلال وجهل،** فإن الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. **وإنما المراد باليقين**

---

111 – «الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان» (ص 20).

112 – قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان» (3/ 140): «**إن تفسير الآية بهذا كفر بالله وزندقة، وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين...**». انتهى.

هاهنا الموت [113]، كما قدمناه. ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فإنه جواد كريم وحسبنا الله ونعم الوكيل. انتهى.

وقد عدَّ العلماء رحمهم الله مِن نواقض الإسلام، وقَواطع المِلَّة: «مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَسَعُهُ الخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَسِعَ الخَضِرَ الخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُوَ كَافِرٌ».

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ [114]: **فمن ادعى أنه مع محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كالخضر مع موسى، أو جوَّز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه، وليتشهد شهادة الحق.** فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية [115]، فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه. وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم وبين أهل الاستقامة منهم فحرك تره. انتهى. **ونقل القاضي عياض اليَحْصُبِي المالكي الإجماع على كفر من اعتقد ذلك، فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ [116]: «وكذلك أجمع المسلمون على تكفير من قال من بعض المتصوفة: إن العبادة وطول المجاهدة إذا صَفَت نفوسهم أفضَت بهم إلى إسقاطها وإباحة كل شيء لهم، ورفع عهد الشرائع عنهم». انتهى.

113- قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾، وهو الموت بإجماع أهل العلم كلهم. **قال الحسن: لم يجعل الله لعبادة المؤمنين أجلا دون الموت.** انتهى من «بدائع التفسير» (2/ 108).

114- انظر: «مدارج السالكين» (2/ 223-224).

115- انظر: «مجموع الفتاوى» (10/ 248-249).

116- انظر: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (2/ 479) بتصرف يسير.

المداومة على النوافل بعد الفرائض

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعالى تفصيل هذا، فقال:**

فِـعْـلُ الفَرَائِضِ وَالنَّوافِلِ دَأْبُـهُم مَع رُؤْيَةِ التَّـقْصِيرِ والنُّـقْـصَـانِ

فالطاعة عندهم إما فرض أو نفل. **والفرض**: ما أمر به الشارع على وجه الإلزام، **والنفل**: ما أمر به الشارع لا على وجه الإلزام.

قال ابن تيمية [117]: «ولا يتقرب وليٌّ الله إلا بأداء فرائضه، ثم بأداء نوافله». انتهى.

وقال العلامة ابن سعدي في مختصر له في «أصول العقائد الدينية»[118]**، حاكيا طريقة أهل السنة في العمل**: «وأما طريقهم في العمل فإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالتصديق والاعتراف التام بعقائد الإيمان التي هي أصل العبادات وأساسها، ثم يتقربون له بأداء فرائض الله المتعلقة بحقه وحقوق عباده مع الإكثار من النوافل وبترك المحرمات والمنهيات تعبداً لله تعالى». انتهى.

والنفل مهمٌّ، ولكنه دون الفرض، لأن الفرض يستحقُّ صاحبه العقاب عند الترك، أما النفل فإن صاحبه ليس معرَّضًا للوعيد عند الترك.

وههنا أمر مهم نبه عليه الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعالى في «الموافقات»** [119]**، وهو أنَّ**: «المندوب لا يعاقب على تركه من جهة الجُزء، أما من حيث الكل فإنه يأخذ حكم الواجب، فالإخلال به مطلقا كالإخلال بالواجب». انتهى.

117- انظر: «مجموع الفتاوى» (10/ 248-249).

118- وقد منَّ الله علي، وشرحت هذا المختصر المفيد، بشرح مُوَسَّع، سَمَّيتُهُ: «**التّعليقات السَّنيّة والفوائد البهيّة شرح مختصر في أصول العقائد الدّينيّة**».

119- الموافقات (1/ 115، 2/ 337).

وجمهور الأصوليين على أن المندوب مأمور به، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [120]، **معلقا على حديث الأعرابي الذي سأل النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **عن الفرائض**: «في هذا الحديث دلالة على جواز ترك التطوعات، **لكن مَن داوم على ترك السنن كان نقصًا في دينه فإن كان تركها تهاونا بها ورغبة عنها كان ذلك فسقًا**، يعني لورود الوعيد عليه حيث قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**مَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فلَيسَ مِنِّي**».

وقد كان صدر الصحابة ومَن تَبِعَهُم يواظبون على السُّنَن مواظبتهم على الفرائض، ولا يفرِّقون بينهما في اغتنام ثوابهما.

وإنما احتاج الفقهاء إلى التفرقة لما يترتب عليه من وجوب الإعادة وتركها ووجوب العقاب على الترك ونفيه، ولعل أصحاب هذه القصص كانوا حديثي عهد بالإسلام، فاكتفي منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال لئلا يثقل ذلك عليهم فيمَلُّوا، حتى إذا انشرحت صدورهم للفهم عنه والحرص على تحصيل ثواب المندوبات سهلت عليهم». انتهى.

قلت: وهو كلام نفيس جدا، فرحمه الله رحمة واسعة.

وقال بعض أهل العلم [121]: «**فالفرض كالأصل والأس، والنفل كالفرع والبناء**، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية فكان التقرب بذلك أعظم العمل، **والذي يؤدي الفرض قد يفعله خوفا من**

120- انظر: «فتح الباري» (3/ 336).

121- انظر: «فتح الباري» (11/ 417)، ولا أدري: هل هو من كلام الحافظ ابن حجر أم من كلام الطوفي، ورحم الله الجميع.

العقوبة ومؤدِّي النفل لا يفعله إلا إيثارًا للخدمة فيجازى بالمحبة التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته». انتهى

قال ابن القيم[122]: «**الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح**». انتهى.

وهذا الذي ذكره الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذكر النوافل بعد الفرائض، هو مصداق الحديث الإلاهي: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[123].

ونبَّهَ العلاّمة شمس الدين ابن القيم على نكتة بديعة في قوله: «بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش»، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[124]: «وتأمّل كيف قال: «**بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش**» ولم يقل: «فلي يسمع ولي يبصر ولي يبطش»، وربما يظنّ الظّانّ أنّ اللاّم أولى بهذا الموضع إذ هي أدلّ على الغاية ووقوع هذه الأمور لله وذلك أخصّ من وقوعها به وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء هاهنا لمجرّد الاستعانة. فإنّ حركات الأبرار والفجّار وإدراكاتهم إنّما هي بمعونة الله لهم **وأنّ الباء هاهنا للمصاحبة: إنّما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه ومعه**، كقوله في الحديث الآخر «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرّكت بي شفتاه**». وهذه المعيّة هي المعيّة الخاصّة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، وقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**ما ظنّك باثنين الله ثالثهما**»، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩]... **فهذه الباء مفيدة**

122- «الفوائد» (ص 98).

123- رواه البخاري، كِتَابُ الرِّقَاقِ، بابُ التَّوَاضُع، رقم 6137.

124- «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص 188)، ويسمَّى أيضا «الداء والدواء».

لمعنى هذه المعيَّـة دون اللاّم، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصّبر والتّوكل ونزوله في منازل العبوديّة إلّا بهذه الباء وهذه المعيَّـة.

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق، وانقلبت المخاوف في حقه أمانا. فبالله يهون كلّ صعب، ويسهل كلّ عسير، ويقرب كلّ بعيد. وبالله تزول الأحزان والهموم والغموم. فلا همّ مع الله، ولا غمّ مع الله، ولا حزن مع الله. وحيث يفوت العبد معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه». انتهى.

«**قال بعضهم**: المحب لله طائر القلب كثير الذكر، متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل، دأبا وشوقا. وأنشد بعضهم:

وكُــنْ لِربِّكَ ذَا حُبٍّ لِتَخْـدمَهُ إنَّ الْمُـحبِّين للأَحْباب خُــدَّامُ

ومن أعظم ما يَتَقَرَّبُ به العبدُ إلى الله تعالى من النوافل كثرةُ تلاوة القرآن، وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم.

قال خباب بن الأرت لرجل: تقرَّب إلى الله تعالى ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرَّبَ إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه».[125]

وقال السَّرِي السَّقَطِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «انقطع من انقطع عن الله بخصلتين، واتصل من اتصل بالله بأربع خصال. **فأما من انقطع عن الله فإنه يتخطى إلى نافلة بتضييع فرض**، والثاني عمل بظاهر الجوارح لم يواطئ عليه صدق القلوب. وأما الذي اتصل به المتصلون فبلزوم الباب، والتشمير في الخدمة، والصبر على المكاره، وصيانات الكرامات» [126].

125- «جامع العلوم والحكم» (ص 560).

126- «صفة الصفوة» (1/ 499).

وأختم هذا الفصل، بهذه الكلمة الجميلة للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [127]: «المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخل بها، كما قال بعض الأكابر: **من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور**». انتهى.

127- «فتح الباري» (11/ 417).

الحَذَر من العُجب

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[مَع رُؤْيةِ التَّقْصِيرِ والنُّقْصَـــانِ]

فهم مع ما منَّ الله به عليهم من فعل الفرائض، وتكميلها بالنوافل، لم يُصبهم العُجبُ والغُرور، بل يرونَ أنفسَهم مقصرين في حق الله تعالى.

قال المصنف في شرحه [128]: «فاجتهاده في الأعمال ينفي عنه الكسل، ورؤية تقصيره ينفي عنه العُجب الذي يُبطلُ الأعمال ويُفسدُها». انتهى.

«**وقد قيل**: علامة رضى الله عنك، إعراضك عن نفسك. **وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله، وصغره في قبلك**، حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته...» [129].

قال أبو الحسن علي بن محمد المزين الصغير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**المُعجَبُ بعلمه مستدرجٌ، والمستحسِن لشيء من أفعاله ممكور به**» [130].

قيل لسعيد بن جبير: من أعبَدُ الناس؟ قال: «**رجلٌ اجتَرَحَ من الذُّنوب، فكلما ذَكَرَ ذنوبهُ احتَقَرَ عَمَله**» [131].

ومن وصايا بعض السلف: «**احذر أن ترى عملك لك، فإن رأيته لك كنتَ ناظرا إلى ما ليسَ لك**» [132].

وقال مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**بحسب المؤمن من الجهل أن يُعجَبَ بعمله، وبحسب المؤمن من**

128- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 22).

129- انظر: «مدارج السّالكين» (1/ 439).

130- «صفة الصفوة» (1/ 443).

131- نفس المصدر (2/ 45).

132- نفس المصدر (1/ 550).

العلم أن يخشَى الله» [133].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**». قَالَ: قُلْنَا: بَلَى فَقَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**» [134].

يقول الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ [135]: «والدّجّال ممكن أن يعرف بعلامات، لكن الشّرك الخفيّ أشدّ منه، لأنّه يكون في القلوب، ولا يطّلع عليه النّاس، لكن قد يُعرف بعلامات تظهر على صاحبه». انتهى.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ [136]: «إنما كان الرياء كذلك لخفائه وقوة الداعي إليه، وعسر التخلص منه لما يزينه الشيطان، والنفس الأمارة في قلب صاحبه». انتهى.

وفي هذا يقول العلامة المعلِّمي رَحِمَهُ اللَّهُ [137]: «المؤمن وإن خلصت نيته في نفس الأمر، لا يستطيع أن يستيقن ذلك من نفسه». انتهى.

وللإعجاب أسباب[138]: فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين، وإطراء المتملقين، الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا، والتملق خديعة وملعبا، فإذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة، أغروا أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم...

133- «صفة الصفوة» (2/ 15).

134- رواه ابن ماجة عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (1406/ 2) رقم 4204 قال الشيخ الألباني: (حسن)، انظر حديث رقم: 2607 في صحيح الجامع.

135- «شرح كتاب التّوحيد» (ص 119).

136- «تيسير العزيز الحميد» (ص 459).

137- «القائد إلى تصحيح العقائد» (ص 33).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: المدحُ ذبحٌ.

فإن للنفس ميلا إلى حب الثناء، وسماع المدح.

وقد قال الشاعر:

يَـهْوَى الثَّـنَـاءَ مُـبرِّزٌ ومُـقَـصِّرُ حُـبُّ الثَّـنَاءِ طَبِيعَةُ الإِنْـسَـانِ

فقل مدح كان جميعه صدقا، وقل ثناء كان كُلُّه حقا. ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه، وتنزيها عن التملق به.

وربما آل حب المدح بصاحبه إلى أن يصير مادح نفسه، إما لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن فضله، وأخلوا بحقه، وإما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والإطراء، فيعتقدون أن قوله حق متبع، وصدق مستمع...

وقد قال بعض الشعراء:

وَمَـا شَـرَفٌ أَنْ يَمْـدَحَ الْمَرْءُ نَـفْسَـهُ وَلَـكِنَّ أَعْـمَـالًا تَـذُمُّ وَتَـمْـدَحُ

وينبغي للعاقل أن يسترشِد إخوانَ الصدق الذين هم أصفياءُ القلوب، ومَرائي المحاسن والعيوب، على ما يُنبهونه عليه من مساوئه التي صرفه حسن الظن عنها. فإنهم أمكن نظرا، وأسلم فكرا، ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساوئه عوضا عن تصديق المدح فيه ... انتهى.

وأما مَن قَوِيَ وتَمَّ إخلاصُه، وصَغُر الناسُ في عيـنِه، واستوى عنده مَدحُهم وذمُّهم، فلا بأس بإظهار محاسِنه للناس، لأن الترغيب في الخير خير، وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم

=

138 - «أدب الدنيا والدين» للماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 378-382) باختصار.

كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدي بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: «لا تبكوا علي، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت»[139].

وفي «الآداب الشّرعية»[140] لابن مفلح الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائد عظيمة في هذا تحت عنوان: «**فصل في تزكية النفس المذمومة، ومدحها بالحق للمصلحة أو شكر النعمة**».

قال القاضي أبو يعلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يعني بقوله ﴿**ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥]: «**فيها دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور**». انتهى.

قال أبو بكر بن عيَّاش: نظرت إلى أقرأ النّاس فلزمت عاصما، ثمّ نظرت إلى أفقه النّاس فلزمت مغيرة، فأين تجد مثلي؟

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمّا حضرته الوفاة وبكت ابنته: يا بنيَّة، لا تبكين، أتخافين أن يعذِّبني الله وقد ختمت في هذه الزاوية أربعة وعشرين ألف ختمة؟ [141]

وفي ترجمة أبي الدّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سلوني، فو الله لئن فقدتموني لتفقدنّ رجلا عظيما.

قلت: والكلام في هذا كثير قديما وحديثا، وهو على خلاف الأصل، ولا يصلح لكل الخَلق، بل هو لأهل الصدق والإخلاص، مع رُجحان مصلحة المدح في تلك المواطن. والله الموفق وحده.

139- «مختصر مناهج القاصدين» لابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 286 وما بعدها).

140- (4/ 116).

141- انظر: «صفة الصفوة» (2/ 96).

منزلة الصَّبر

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا بيتا في منزلة الصبر، وكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أراد أن يبين أن **هذه المنازل التي مرَّت، مِن فِعل الطاعة، وترك المعصية، وفعل الفرض، ثم النفل، لا تكون إلا بالصبر.**

فمن ظن أنه يسير ولا يتعب ولا ينصب، فإنما يطلب المُحال. فإن هذه الدار دارُ تعب ونَصَب.

ولهذا لما بشر جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بالجنة، قال للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ**» [142].

النَّصَبُ: المشقَّةُ والتَّعَبُ.

لأن هذه الدار دار تعب ونصب. ولما سئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: متى الراحة؟

قال: **الراحة في الجنة.** وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن **الراحة لا تنال بالراحة.**

قال شمس الدين ابن القيم [143]: «أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة...». انتهى.

مَن فاتَهُ الزَّرعُ في وقت البِذارِ فَمَا ... تَراهُ يَحصِدُ إلاَّ الهَمَّ والنَّدَمَا

فمن أراد الراحة فينبغي له أن يتعب.

فاتعَبْ لِيَومِ مَعَادِكَ الأَدْنَى تَجِدْ ... رَاحَاتِهِ يَومَ المَعَادِ الثَّانِي

142- رواه البخاري كِتَاب مَنَاقِب الأَنْصَار، بَابُ تَزْوِيجِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ وَفَضْلِهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا رقم 3609، ومسلم كتاب فَضَائِل الصَّحَابَة، باب فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضى الله تعالى عنها، رقم 2432.

143- «مدارج السالكين» (1/ 518).

ومِن بدائع ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [144]: «الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، **والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار. ومن المحال عادة أن يُطلبَ فيه نَعيمٌ ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر**. ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير». انتهى.

قلت: ولهذا، يجوز للمسافِرِ الذي لم يَجمَع الإقامة أن يَترخَّص برُخَص السفر مِن قَصرٍ وفِطرٍ وغيرِهما، لأنَّه لا يتنَعَّم على وجه التمام ما لم يستَقر.

وهذه حال الدنيا، فإنها دار ممَر لا دار مَقَر، تُراد لتُعبَر ولا تُراد لتُعمَر، وقد قال الألبيري:

ولـم تُـخـلَق لـتَـعمُـرَها ولـكـن لتَـعبُـرَها فَجُـدَّ لِـمَـا خُـلِـقْـتَـا

وفي «البخاري» قولُه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيل**».

قال العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ [145]: «فكُلُّ ساعة قابلة لأن تضع فيها حجراً يزداد به صرح مجدك ارتفاعاً، ويقطع به قومك في السعادة باعاً أو ذراعاً، فإن كنت حريصاً على أن يكون لك المجد الأسمى، ولقومك السعادة العظمى، فدَعِ الراحة جانباً، واجعل بينك وبين اللهو حاجباً». انتهى.

وما أجمل قول أبي يَعلى الموصلي المحدِّث رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إنِّـي رأيـتُ وَفِي الأَيَّام تَـجربـةٌ للصَّبْـرِ عَاقِبـةً محمودةَ الأثَـرِ

وَقَـلَّ مَنْ جَـدَّ فِي أَمْـرٍ تَـطَلَّبَـهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلا فَازَ بِالظَّفَرِ

144- «الفوائد» (ص 229)، وانظر: «طريق الهجرتين» (ص 189-191)، فله كلام رائع في السفر إلى الله.

145- «رسائل الإصلاح» (1/ 84).

وفي القرآن: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. فالله جل وعلا يبشر هؤلاء الذين صبروا أنفسهم، والبُشرى أنَّ ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٧].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

صَــبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى المَكارِهِ كُلِّهَا شَوْقـاً إلى مَا فِــيْهِ مِــنْ إِحْسَــانِ

والصبر: هو الحبس، لغة.

وفي الشرع: حبس النَّفْس على حكم الله.

وحكم الله نوعان: حكم شرعي وحكم قدري.

والحكم الشرعي أمران: فعل طاعة وترك معصية.

فيكون الصبر على الحكم الشرعي بحبس النفس على فعل الطاعة وترك المعصية.

وأما الحكم القدري: فالصبر عليه يكون بحبس النفس عن الجزع، واللسان عن التَشَكِّي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب [146].

قال ابن القيم [147]: «فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، **فإذا قام بها العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبا.**

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالى على العبد عبودية في الضراء، كما له عبودية في السراء، **وله عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب**. وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى». انتهى.

146- انظر تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة (ص 7)، وراجع لهذا «القول المفيد» لابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (2/ 36).

147- «الوابل الصيب» (ص 3).

وقال الحسن البصري: «كانوا يتساوون في وقت النعم، فإذا نزل البلاء تباينوا».[148]

وقال ابن الجوزي[149]: «والإيمانُ القويُّ يَبينُ أَثَرُه عند قُوَّة البَلاء». انتهى.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَلاَ أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[150].

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَجَدنَا خيرَ عَيشِنَا الصَّبرَ**».

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس له**».

والشكوى إنما تكون لله، ولا بأس أن تشكو إلى المخلوق ولكن على سبيل المواساة، لا تشكو من الله للمخلوق، فهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه[151]. **ولهذا قال القائل:**

وَإِذَا عَـرَتْكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَـا صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَـمُ
وَإِذَا شَـكَـوْتَ إِلَى ابْـنِ آدَمَ إِنَّـمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لاَ يَرْحَـمُ

والشكوى إلى الله عَزَّ وَجَلَّ **لا تنافي الصبر**. فإن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وعَد بالصبر الجميل. والنبي إذا وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]... **وإنما يُنافي الصبرُ شكوى الله، لا الشكوى إلى الله**[152].

148- انظر: «اليقين» لابن أبي الدنيا (رقم 13).

149- «صيد الخاطر» (ص 200).

150- رواه البخاري كِتَابُ الزَّكَاة، بَابُ الِاسْتِعْفَافِ عَنِ المَسْأَلَةِ، رقم 1400، ومسلم كِتَابُ الزَّكَاة، بَابُ فَضْلِ التَّعَفُّفِ وَالصَّبْرِ، رقم (1053/ 124)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ.

151- انظر: «فائدة: في بيان جهل من يشكو إلى الناس» في كتاب «الفوائد» (ص 108).

152- انظر: «مدارج السالكين» (1/ 513)، و«الروح» لابن القيم (ص 319).

وقسم الإمام ابن القيم مراتب الشكوى إلى ثلاث مراتب، فقال [153]:

«**أخسها**: أن تشكو الله إلى خلقه.

وأعلاها: أن تشكو نفسك إليه.

وأوسطها: أن تشكو خلقه إليه».

أتظن أن ابن آدم يرحمك أكثر من رحمة الله جل وعلا بك؟ بئس الرجل من يظن هذا. لما رأى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تلك المرأة التي أخذت ابنها بعد فراق، قال -عليه الصلاة والسلام-: «**أَتَـرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ**». قُلْنَا: لاَ والله، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الله أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**» [154].

وبعض الناس إذا عامل ربَّه، وكأنه ينسى رجاء الله جل وعلا. وكما مر بيانُه، ينبغي أن نستحضر الرجاء والطمع في فضل الله ورحمته، فإن رحمته سبقت عذابه، ولكن ذلك الرجاء إذا لم يقارنه خوف الله تعالى، هَلَكَ المرء برجائه.

والصبر واجب بالاتفاق [155]، ويحتاج مجاهدة، كما قال تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فاصبر في نفسك، ولازم الصبر، وداوم عليه، وغالب غيرك في الصبر، تكن من المفلحين. فالصبر يحتاج مجاهدة. ولا تظنن أن هذه المنازل التي سيذكرها الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى إنما يصل

153- انظر: «فائدة في بيان جهل من يشكو إلى الناس» في كتاب «الفوائد» (ص 108)، وفصلا نافعا في «**كراهة الشكوى من المرض والضير واستحباب حمد الله قبل ذكرهما**» في «الآداب الشرعية» (2/ 289).

154- رواه البخاري كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ رَحْمَةِ الوَلَدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ، رقم 5653، ومسلم كِتَابُ التوبة، باب فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، رقم 2754.

155- «الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان» (ص 99).

إليها العبد بسهولة. ولا تظنن أنك إذا وصلت إليها أو إلى بعضها تثبت عليها بسهولة. الثبات عزيز!!

إن الثَّباتَ في الرِّجال عَزَّا ويَغنمُ الرِّجالُ منه العِزَّا [156]

والعبد إذا لم يستعن بالله جل وعلا فإنه لا محالة هالك، لأنه لا غنى له عن الله تعالى طَرفة عين. وفقر العبد إلى الله ﷻ أمر يجب أن يستظهرُه المرء دائما، ويستظهر ضعفه واستكانته إلى مولاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَقْرُ القُلُوبِ إِلَى الإِلَهِ ضَرُورَةٌ يَا وَيْلَ قَلْبٍ بَاءَ بِالحِرْمَانِ [157]

قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]. أي: **إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا**، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء... قاله ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وما أجمل قول شيخ الإسلام ابن تيمية في أبيات بعث بها في آخر عمره إلى تلميذه ابن القيم عليهما رحمة الله [158]:

أنا الفَقيرُ إلى رَبِّ البَرِيّاتِ أنا المُسَيْكِينُ في مَجْموعِ حالاتي

أنا الظّلومُ لنَفْسي وهِيَ ظالِمَتي والْخَيْرُ إنْ يَأتِنا مِنْ عِنْدِهِ ياتي

لا أسْتطيعُ لِنَفْسي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ولا عَنِ النّفْسِ لي دَفْعَ المَضَرّاتِ

156- من «قصيدة الهداية» لشيخنا صالح العصيمي وفقه الله.

157- من مطلع «منظومة المعاني الحسان في نصح أهل الإيمان» لشيخنا صالح العصيمي وفقه الله.

158- انظر: «مدارج السالكين» (1/ 392). وقد يسَّر الله لي شرحَ هذه الأبيات في دروس مسجلة، ثم كُتِبت وعلَّقتُ عليها، وخَرَجت في كتاب سميتُه: «**شذا العبير بشرح قصيدة ابن تيمية: أنا الفقير**».

ولـــيْسَ لي دونَهُ مَوْلىً يُدَبِّرُنـــــي ... ولا شَفيعٌ إذا حاطَتْ خَطيئـــــاتي

إلا بإِذْنٍ مِنَ الرّحْمنِ خالِقِنـــــا ... إلى الشّفيعِ كَما قَدْ جــا في الآيـــاتِ

ولسْتُ أَمْلِكُ شيئاً دونَهُ أبَـــــداً ... ولا شَريكٌ أنا في بَعْـــــضِ ذَرّاتِ

ولا ظَهيرٌ لَـهُ كَيْ يَسْـتَعينَ بِـــــهِ ... كما يَكونُ لأرْبـابِ الوَلايـــــاتِ

والـفَقْرُ لي وَصْـفُ ذاتٍ لازمٌ أبَداً ... كما الغِنَى أبَداً وَصْفٌ لَــــــهُ ذاتي

وهـذهِ الحْـالُ حالُ الخَلْقِ أجْمَعِهِم ... وكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَـبْدٌ لَــــــــهُ آتــي

فَـمَنْ بَـغى مَطْلَباً مِنْ غَيْرِ خـالِقِهِ ... فَهُوَ الجَهولُ الظّلومُ المُشْــرِكُ الْعـاتي

والحَـــمْدُ للهِ مِـلْءَ الْكَوْنِ أجْمَعِــهِ ... ما كانَ مِنْهُ وما مِنْ بَعْدُ قَدْ يَـــــاتي

فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء. وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرفَ فيه. [159]

159- «مدارج السالكين» (1/ 392).

والحاصل أنَّ الصبرَ صعبٌ، لكنَّ عواقبَه حسنةٌ، فإذا رأيت العواقب الحسنة، هانت عليك مصاعب الطريق.

وَالصَّبرُ مِثْلُ اسمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ لكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ

مُرٌّ من حيث صعوبة الطريق، لكنه حُلوٌ من حيث النتيجة التي تنتظر العبد بسببه.

نكتة بديعة حول الصَّبر

قال ابن رجب عند شرح حديث: «**وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»[160]: «وأما الصبر فإنه ضياء، والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق كضياء الشمس بخلاف القمر فإنه نور محض فيه إشراق بغير إحراق. قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[يونس: ٥]...

ولما كان الصبر شاقا على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه كان ضياء». انتهى.

قال السري السَّقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**من عَرَفَ ما يطلُب، هانَ عليه ما يَبذُل**».[161]

فمن سار في طريق العبودية إلى لقاء الحبيب، فلا بد من مواصلة السير حتى يصل، فإن وقَف في الطريق أو رجع هلَك، **فإن اشتدَّ عليه ألمُ السير، فليذكر راحةَ الوصول وقد زال التعب**.[162]

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[163]: «**من تأمل حلاوة العاقبة هانت عليه مرارة الصبر**». **وقال**[164]:

160- «جامع العلوم والحكم» (ص 345).

161- «صفة الصفوة» (1/ 499).

162- انظر: «رسائل ابن رجب» (1/ 371).

163- «الفوائد» (ص 63).

164- نفس المصدر (ص 98).

«**هان سهر الحُرَّاس لما علِموا أن أصواتَهم بِسَمعِ الملِك. من لاحَ له حالُ الآخرة، هانَ عليه فِراقُ الدنيا**». انتهى.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [165]: «**التائق للعافية لا يبالي بمرارة الدواء**». انتهى.

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ [166]: «**من كَرُمت عليه نفسُه، هانَ عليه كلُّ ما يَبذُل في افتكاكها من النار**». انتهى.

ولذلك كُلَّما حدَّثَتكَ نفسُك بالضَّجَرِ والقَلَقِ، حَدِّثْهَا أنتَ بِما يَنْتظِرُهَا من الخير العظيم عند الله جل وعلا. ولهذا كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قبل الغزوات، يتذكرون الجنة وما فيها من النعيم المقيم، لأن ذلك مما يحدو المرء نحو بذل النفس في سبيل الله جَلَّ جَلَالُهُ.

فإنك إذا تذكرت ما ينتظرك هان عليك ما تبذله. وما الذي ستبذله؟ نفس؟ انظر ماذا ينتظرك من النعيم الذي ليس في مقابلة عملك، بل هو مَحْضُ فضل الله على عباده. فإن الله جل وعلا منَّ على العبد أكثر بكثير مما يستحقه تَـكرُّما منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن بدائع ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [167]: «والله لو قال المالك سبحانه: إنما خلقتكم ليستدل على وجودي، ثم أنا أفنيكم ولا إعادة، لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول: سمعا لما قلت وطاعة. وأي شيء لنا فينا حتى نتكلم؟

فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل، والخلود في النعيم، الذي لا ينفد.

لكن طريق الوصول تحتاج إلى صبر على المشقة...

فالصبرَ الصبرَ يا أقدام المبتدئين، لاح المنزل. والسرورَ السرورَ يا متوسطين، ضُرِبَت الخِيَم.

165- «صيد الخاطر» (ص 298).

166- «لطائف المعارف» (ص 395).

167- «صيد الخاطر» (ص 235).

والفرحَ الكامل يا عارفين، قد تُلُقِّيتُم بالبشائر». انتهى.

وفي «تائية» أبي إسحاق الألبيري:

إذا أَبــصَرتَ صَحبَكَ في سَماءٍ قَد اِرتَفَعوا عَــلَيكَ وَقَد سَفَلـتا

فَــراجِـعها وَدَع عَنكَ الهُوَينى فَــما بِالبُـطءِ تُــدرِكُ ما طَلَــبتا

وقال ابن الجوزي أيضا [168]: «فالصبرَ الصبرَ أيها الطالب للفضائل، فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب ويبقى الأسى». انتهى.

قال الشافعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

يـا نَـفسُ مـا هُـوَ إِلّا صَــبرُ أَيّـامِ كَــأَنَّ مُـدَّتَهَا أَضــغاثُ أَحــلامِ

يَـا نَفْسُ جُوزِي عَنِ الدُّنيَا مُبَادِرَةً وَخَــلِّ عَنهَا فَإِنَّ العَيشَ قُـدَّامِي

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال جلَّ في علاه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١].

---

168 - «صيد الخاطر» (ص 235).

منزلة الرضا

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نَـــزَلُــوا بِمَـنْزِلَةِ الرِّضَى فَهُمُ بِهَا قَدْ أَصْبحُـوا فِي جُـنَّــةٍ وأَمَــانِ

بعد منزلة الصبر، هناك منزلة أعلى درجة وهي: منزلة الرضا. والصبر واجب، والرضا مستحب وليس بواجب على الصحيح.[169]

قال عمر بن عبد العزيز: «الرضا عزيز، ولكن الصبر مُعَوَّلُ المؤمن».

وهذا بالنسبة للمصائب، وأما فعل العبد وهي الطاعات والمعاصي، فيجب الرضى بالطاعات الواقعة منه ومن غيره ومحبتها، وكراهة المعاصي الواقعة منه ومن غيرِه...[170]

والرضا: تَلقِّي أحكام الله الشرعية والقدرية بانشراح صدر وسرور نفس[171].

فإن قيل: ما الفرق بين الرضا والصبر؟

الجواب: «قال طائفة من السلف: **إن الراضي لا يتمنى غير حاله التي هو عليها**»[172].

169- وهو اختيار شيخ الإسلام، وابن القيم، وانظر تفصيل المسألة في: «مجموع الفتاوى» (10/ 27 وما بعدها) و(10/ 383) و«فهارس الفتاوى» (36/ 662)، و«مدارج السالكين» (5/ 521 وما بعدها).

170- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 31)؛ وانظر: «فهارس مجموع الفتاوى» لابن تيمية (36/ 662).

171- من تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة (ص 7)، وانظر: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» (2/ 81) ضمن «مجموع رسائل ابن رجب»، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والرضا يوجبُ انشراح الصدر وسعتَهُ**». انتهى.

172- «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» (2/ 81) ضمن «مجموع الرسائل»، ونقل كلامه سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» (ص 451). وانظر: «صفة الصفوة» (1/ 427).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ [173]: «واعلم أنه لا تنافي بين الرضى وبين الإحساس بالألم، فكثير ممن له أنين مِن وجع وشدة مرض، قلبُه مشحون من الرضى والتسليم لأمر الله». انتهى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[نَـــزَلُــوا بِمَـنْزِلَةِ الرِّضَى]

فالرضا من أعظم المنازل، ومن خشي الله جل وعلا وأناب إليه وأظهر حاجته إليه، وُفِّقَ لتلك المنزلة العالية.

قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

فمن خشي الله جل وعلا فإنه حقيق بأن يوفق إلى تلك المنزلة.

قال النصر آبادي [174]: «من أراد أن يبلغ محل الرضا، فليلزم ما جعل الله رضاه فيه».

قال شيخ الإسلام معلقا على هذه المقولة [175]: «هذا الكلام في غاية الحسن، فإنه من لزم ما يرضى الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه لا سيما إذا قام بواجبها ومستحبها، فإن الله يرضى عنه». انتهى.

وكما قلت من قبل: لا تظنن أنك تصل إلى تلك المنازل بسهولة، فهي تحتاج منك صبرا، ومجاهدة، ومرابطة، مع الاستعانة بالله جل وعلا. فمتى وصل العبد إلى هذه المنزلة، فهو في جنة قبل جنة الآخرة.

173- «تيسير العزيز الحميد» (ص 451).

174- أو النصراباذي، كما في طبعة محمد رشاد سالم لكتاب «الاستقامة» (2/ 72).

175- «مجموع الفتاوى» (10/ 383).

[فَهُمُ بِهَا قَدْ أَصْبحُوا فِي جُنَّةٍ وأَمَانِ]

فإن من رضي بقضاء الله وقدره، فهو في **جُنَّةٍ** أي: حماية ومَنَعة من ضيق الصدر، وعذاب النفس، وسخط الرحمان، وفي **أَمَان**، في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [176]: «ولذلك كان الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين». انتهى.

قال بعض السلف: «بالمعرفة هانت على العاملين العبادة، **وبالرضا عن الله** ﷻ **في تدبيره زهدوا في الدنيا، ورضوا منها لأنفسهم بتقديره**».[177]

ومن رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله. [178]

فائدة

ليس الرضى والمحبة كالرجاء والخوف، **فإن الرضى والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة، لا يفارقان المتلبس بهما في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة**. بخلاف الخوف والرجاء، فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأمنهم مما كانوا يخافونه...[179]

ولكن هناك منزلة أعظم من الرضا، وهي **منزلة الشكر**. وهذا ما سيذكره الناظم فيما يأتي.

176- «مدارج السالكين» (1/ 523). وقد اقتبس ابن القيم هذا من كلام السلف. انظر: «الرضا عن الله بقضائه» لابن أبي الدنيا (رقم 13).

177- «صفة الصفوة» (1/ 504).

178- «الرضا عن الله بقضائه» لابن أبي الدنيا (رقم 15).

179- «مدارج السالكين» (1/ 523).

منزلة الشكر

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شَــكَرُوا الَّذي أَوْلَى الخَلائِقَ فَضْلَهُ بِالقَـلْبِ والأَقْــوَالِ والأَرْكَــانِ

فالشكر منزلة أعظم من الرضا، وهي أن يشكر العبد ربه على ذلك البلاء الذي أصابه.

فالصبر واجب، والرضا مستحب، والشكر مستحب أيضا من باب أولى.

فالشكر هنا هو انشراح الصدر، مع الفرح بذلك البلاء. وهذا لا يكون إلا للكُمَّلِ من عباد الله جل وعلا، ومن رحمة الله بخلقه أن لم يجعله واجبا عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [180]: «الصَّبْرُ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ الرِّضَى بِحُكْمِ اللهِ وَهُوَ مُسْتَحَبٌّ وَهُوَ الصَّحِيحُ. **وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ عَلَى الْمُصِيبَةِ، لِمَا يَرَى مِنْ إنْعَامِ اللهِ عَلَيْهِ بِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا سَبَبًا لِتَكْفِيرِ خَطَايَاهُ وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِ** ...». انتهى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[شَـكَرُوا الَّذي أَوْلَى الخَلائِقَ فَضْلَهُ]

قال سبحانه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[النحل: ٥٣]، وقال:﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]. فكل خير وكل نعمة فمن عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. والاعتراف بتلك النعمة حق واجب لله جل وعلا. والمخلوق مهما فَعَلَ لا يعدو أن يكون سببا، والفضل لله أولا وآخرا.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[النمل: ٧٣]، وقال: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ

---

180 – «الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان» (ص 99).

فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦]، وقال:﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾[لقمان: ١٢]...

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «الفنون»** [181]: «النعم أضياف وقراها الشكر، والبلايا أضياف وقراها الصبر، فاجتهد أن ترحل الأضياف شاكرة حسن القرى، شاهدة بما تسمع وترى». انتهى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[بِالقَلْبِ والأَقْوَالِ والأَرْكَـــانِ]

الشكر: ظهور ثناء العبد على قلبه إقرارا، وعلى لسانه اعترافا، وعلى جوارحه طلبا وتركا[182].

فالشكر يكون بهذه الثلاثة.

بالقلب: اعترافا أن النعمة من عند الله جل وعلا وحده، وأن المخلوق مهما علا لا يعدو أن يكون سببا، ولو شاء الله ما جعله سببا، ولكن سنة الله تعالى الكونية اقتضت خلق السبب والمسبَّب. **قال بعض السلف**: «من لم يعرف قدرَ النِّعم سُلِبَها من حيث لا يعلم، ومن هانت عليه المصائب أحرَزَ ثوابها».[183]

والأقوال: لا بد أن تُفصِح بأن هذه النعمة هي من عند الله تعالى، ولا تَنسب النعمة إلا لله. وفي «**كتاب التوحيد**»: «باب: قول الله تعالى: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾[النحل: ٨٣]». «**قال بعض السلف**: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقا، ونحو ذلك مما هو

---

181 – «الآداب الشرعية» لابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ (2/ 291).

182 – من تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة (ص 7). وانظر: شرح المصنف (ص 24).

183 – «صفة الصفوة» (1/ 497).

جار على ألسنة كثيرة». انتهى

فنسيانك الله تعالى في هذه المواطن دليل على عدم تعظيم المولى جَلَّجَلَالُهُ، وقادح في كمال توحيدك. فإذا اقترن مع ذلك نسبة الفعل ونسبة الإيجاد والنصرة لغير الله تعالى كان كُفرا أكبرَ كما هو مُقَرَّرٌ في شروح كتب التوحيد.

والأركان: فمِن شُكر النعمة صرفُها في ما يُرضي الله تعالى، والاستعانة بها على طاعة المُنعِم وعبادته. فمن لم يصرف النعمة في ما يرضي الله، ولم يستعن بها على عبادة مولاه، لم يكن في عِداد الشاكرين.

جمع الشاعر هذه الثلاثة بقوله:

أفـادَتْكُمُ النَّـعْـمـاءُ مـنّي ثَـلاثـةً يَـدِي ولِـسَاني والضَّـميرَ المُحَـجَّبـا

وقد جعل ابن القيم الشكر مَبنِيًّا على خمس قواعد، وهي: «خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثنائه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره» [184]. انتهى.

واعلم أن توفيق الله لك للشكر نعمة عظيمة، ومِنَّةٌ جليلة، حُرِمَها الأشقياء، وتفضل الله بها على السعداء، **فإنَّ اللهَ «سبحانه أعلمُ بالمحلِّ الذي يصلح لغرس شجرةِ النعمة فتُثمرَ بالشكر، من المحلِّ الذي لا يصلح لغرسها،** فلو غُرست فيه لم تثمر، فكان غرسُها هناك ضائعًا لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤]». [185]

184- «مدارج السالكين» (2/ 4). وانظر فصلا في «الذكر والشكر» في كتاب «الفوائد» (ص 158).

185- «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 337).

منزلة التوكل

لما كانت هذه المنازل التي مرت معنا لا تَحصُلُ إلا بالمجاهدة والصبر، والصبر لا يتيسَّرُ إلا لمن صَدَقَ توكُّلُهُ على ربه، أتبعَ الناظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ منزلةَ الشكر بمنزلة التوكل.

يقول ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «**روضة العقلاء**»[186]: «**التوكل هو نِظام الإيمان وقرين التوحيد،** وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر ووجود الراحة». انتهى.

ويقول شيخ الإسلام[187]: «التّوكّل من الأمور الدّينيّة الّتي لا تتمّ الواجبات والمستحبّات إلاّ بها، والزّاهد فيها زاهد فيما يحبّ الله ويأمر به ويرضاه». انتهى.

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

صَـــحِبُوا التَّوكُّلَ في جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَعَ بَـذْلِ جُـــهْدٍ فِي رِضَى الرَّحْمَـنِ

التوكل: هو الاعتماد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به، وفعل الأسباب المأذون فيها.**[188]

وقيل: التوكل هو قطع القلب عَن العلائق برفض الخلائق، وإضافته بالافتقار إلى محول الأحوال.[189]

186- (ص 153).

187- «مجموع الفتاوى» (10/ 16).

188- «القول المفيد» (2/ 25)، و«جامع العلوم والحكم» (ص 668)، و«قاعدة في التوكل على الله» في «الفوائد» (ص 107). وعرّفَهُ العلامة ابن قاسم في «حاشية ثلاثة الأصول» بقوله: «هو صدقُ التفويض والاعتماد على الله في جميع الأمور، وإظهار العجز والاستسلام له». وبنحوه عرّفه شيخنا العصيمي في تعليقه على المنظومة (ص 8).

189- «روضة العقلاء» (ص 156).

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣]. وحقيقة التوكل على الله أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله. فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه. وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة. **فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله وتعلق به وكل إليه وخاب أمله.** (190)

ولهذا **قال** رَحِمَهُٱللَّهُ:

[صَــحِبُوا التَّوكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ]

أي في كل شيء من أمور الدين والدنيا.

علاقة الأسباب بالتوكل

[مَـعَ بَذْلِ جُهْدٍ فِي رِضَــى الرَّحْمَـنِ]

أي: فلا تعتمد على الله بقلبك، وتترك فعل الأسباب.

واعلم أن الله ﷻ قد خلق للآدمى آلة يدافع بها عن نفسه الضرر، وآلة يجتلب بها النفع، فإذا عطلها مدعيا للتوكل كان جهلا بالتوكل، وردا لحكمة الواضع، **لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله سبحانه وليس من ضرورته قطع الأسباب**. ولو أن إنسانا جاع فلم يأكل، أو احتاج فلم يسأل، أو عري فلم يلبس، فمات دخل النار، لأنه قد دل على طريق السلامة، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه. (191)

190- «القول السَّديد» (ص 119).

191- انظر: مقدمة كتاب «صفة الصفوة» لابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ (1/ 11).

قال ابن القيم [192]: «أجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان». انتهى.

وما العلاقة بين فعل الأسباب والتوكل؟

سألت شيخنا صالحا العُصيميَّ: هل التوكل متضمن أم مستلزم لفعل الأسباب؟

فأجاب وفقه الله: «الأسباب شرط التوكّل، والشرط خارج عن ماهية الشيء». [193]

فنظمتُ هذا المعنى بقولي:

إنَّ التَّـوَكُّلَ شَـرْطُـهُ الأَسْبَـابُ حِـرْمَانُـهُ عَـيْنُ الأَسَـى وَعَـذَابُ

فمن حُرِم التَّوكل عُذِّب في الدنيا قبل الآخرة.

ومِن بدائعِ العلاَّمة ابن سعدي في بيان القَدْرِ المأذونِ به في التَعَلُّقِ بالأسباب، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ [194]: «على العبد أن يكونَ توَكُّله واعتمادُه على الله، وأن يقومَ بالأسباب النافعة ولا يعتمد عليها، **ولكن الله إذا يَسَّرَها للعبد أو يَسَّرَ ثمراتها ونتائجها فرِحَ بها العبدُ واطمأنَّ بها قلبُه** [195]، **مِن غير**

192- «مدارج السالكين» (1/ 479).

193- وقد جمعت بفضل الله نحوا من خمسين مسألة أنقلها عن الشيخ صالح العصيمي وفقه الله، ولعل الله يُيسر نشرها قريبا إن شاء الله بعد اطلاع شيخنا عليها.

194- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 36).

195- وقال شيخنا صالح العصيمي وفقه الله أثناء تعليقه على «فتح المجيد» (السنة الثانية/ المجلس 18):

«**الطمأنينة إلى السبب نوعان:**

أحدهما: طمأنينة سُكون.

والآخر: طمأنينة رُكون.

=

اعتمادٍ عليها، بل استبشارا بأنها من فضله وتيسيره، ولهذا لما ذَكَرَ الله إمدادَ الملائكة للمسلمين في بدر قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٢٦]...». انتهى.

فائدة من قصة ذي القرنين

قال العلامة جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُعَدِّدًا فوائد قصة ذي القرنين وبناء السُّدِّ [196]: «**ومنها**: الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل، وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر...». انتهى.

فالسائرون إلى الله يسعَون في رضا محبوبهم سعيا حثيثا صادقا، اعتمادا عليه سبحانه، وعملا بالأسباب المشروعة.

ولو توكّل العبد على الله حقّ توكّله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورا بإزالته، لأزاله.[197]

الفرق بين الثقة بالله والغرور والعجز

الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض. **والمغتر العاجز** قد فرط فيما أُمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود. قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [198].

=

والفرق بينهما: اقتران الثاني بالجَزم، فإن القلب مع طمأنينة السكون يرجو حصول مقصودِه ولا يَقطع به، وأمّا في طمأنينة الركون فيكمل تعلّقه بالسبب حتى يجزم بحصول مقصودِه». انتهى.

196- «محاسن التأويل» (7/ 72).

197- انظر: «مدارج السالكين» (1/ 61).

198- «مدارج السالكين» (1/ 485). وانظر: كتاب «الروح» (ص 302).

وكان يحيى بن معاذ يقول: عمل كالسراب، وقلب من التقوى خراب، وذنوب بعدد الرمل والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب؟! هيهات...[199]

يقول المكي بن عزّوز التّونسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [200]: «فاليد تعمل، والقلب على الله يتوكل، واللسان يدعو الله، فالشّغل الواحد يخدمه الأعضاء الثّلاثة، ولا تنافي بين وظائفها الثّلاث. هذا هو الشّرع الكامل، وبه يتمّ المأمول للآمل». انتهى.

وهذا موضَّح في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ**».[201]

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [202]: «**والتوكل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده**. فيتوكل على الله أن يقيمه في سبب يوصله إلى مطلوبه. فإذا قام به توكل على الله حال مباشرته. فإذا أتمه توكل على الله في حصول ثمراته. **فيتوكل على الله قبله، ومعه، وبعده**». انتهى.

وليعلم العبدُ أن الله كافيه، فلا يعلِّق قلبه بالأسباب، فقد قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ**﴾[الطلاق: ٣]، والوقوف مع الأسباب مع نسيان المسبِّب غلط.[203]

يقول عبد الرحمان بن حسن آل الشيخ [204]: «**فعل السبب سنَّة، والتوكل على الله توحيد. فإذا جَمَعَ بينهما تمَّ مُرادُهُ بإذن الله**». انتهى.

199- «صفة الصفوة» (2/ 292).

200- «العقائد الكُبرى» (ص 53).

201- وقد سبق تخريجه.

202- «مدارج السالكين» (1/ 479).

203- انظر: «صيد الخاطر» (ص 54، 142).

204- «فتح المجيد» (ص 520). وانظر: «مجموع الفتاوى» (8/ 310).

حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم هو أكمل الأحوال

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**»، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾[آل عمران: ١٧٣]».[205]

فحال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحال الصّحابة محكّ الأحوال وميزانها، بها يعلم صحيحها من سقيمها. فإنّ هممهم كانت في التّوكّل أعلى من همم من بعدهم. **فإنّ توكّلهم في فتح بصائر القلوب، وأن يعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحّد جميع العباد...**[206]

وهذا هو حال جميع الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم.

قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾[يونس: ٧١] الآية، وقال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾[هود: ٥٦]، وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ:﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨]، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف: ٦٧]... إلى غير ذلك من الآيات.

قال ابن القيم عَلَيْهِ السَّلَامُ[207]: «فقد كان زكريا نجارا، وقد أمر الله نوحا أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتمادا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين.

205- رواه البخاري كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: 173] الآيَةَ، 4287.

206- «مدارج السالكين» (1/ 494).

207- «الروح» (ص 316).

ألا ترى أنهم بذلوا جُهدَهم في مُحارَبة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم، وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل، وعمَروا أموالهم وأصلَحوها، وأعَدُّوا لأَهلِيهم كِفايتَهم مِن القُوت، اقتداءً بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله». انتهى.

وأعظمُ التوكل على الله، التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم.[208]

ولهذا كان صدقُ التوكل علامةَ إيمان العبد. والذي يتوكل على الله جل وعلا يمضي في شأنه منشرح الصدر، لأنه فوض الأمر إلى الحي الذي لا يموت، وهو الله جَلَّجَلَالُهُ وتباركت أسماؤه وصفاته.

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان: ٥٨ – ٥٩].

208 – «الفوائد» (ص 107).

منزلة الإحسان

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَـبَدُوا الإِلَهَ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ فَـتبَوَّؤوا فِي مَنْـزِلِ الإِحْـسَـانِ

وهذه منزلة الإحسان.

فهم إذا عبدوا الله، عبدوه وكأنهم يرونه، وهذه من أعلى درجات الإحسان، **فإن للإحسان درجتين:** [209]

الدرجة الأولى: أن تعبد الله كأنك تراه، **وهذا مقام المشاهدة.**

والدرجة الثانية: فإن لم كن تراه فهو يراك، **وهذا مقام المراقبة أو مقام الإخلاص.**

قال بعض السلف: «من عمل على مشاهدة الله، فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه، فهو مخلص».

ومقام المشاهدة أعظم من مقام المراقبة. فمن عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلا عن مواقعتها. [210]

إذا رأيت الله ﷻ هل تعصيه؟ أبدا. إذا رأيت الله سبحانه، هل تسترسل في الوساوس وأنت قائم تصلي بين يديه؟ هل تغفل عن ذكره ساعة؟ أبدا...

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[الرعد: ١٩].

209- انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص 59)، و«مجموع رسائل ابن رجب» (1/ 380).

210- انظر: «الجواب الكافي» (ص 74).

أفمن يرى بعين قلبه أن ما أنزل الله إلى رسوله هو الحق، كمن هو أعمى لا يبصر ذلك؟... ولا ريب أن تصديق الخبر واليقين: به يقوى القلب، حتى يصير الغيب بمنزلة المشاهد بالعين. **فصاحب هذا المقام**: كأنه يرى ربه سبحانه فوق سماواته على عرشه، مطلعا على عباده ناظرا إليهم، يسمع كلامهم ويرى ظواهرهم وبواطنهم. وكأنه يسمعه وهو يتكلم بالوحي، ويكلم به عبده جبريل ويأمره وينهاه بما يريد...[211]

فإن لم تصل إلى هذا المقام، مُرَّ إلى ما بعده، **وهو مقام المراقبة**، وهي أنك إذا لم تكن تراه فاعلم أنه يراك.

فإذا كنت تعلم أن الله يراك، فإنه خليق بك أن تترك ما لا يُرضي الله جلَّ وعلا.

قال بعضهم: «خَفِ الله على قدر قدرته عليك، واستحِ منه على قدر قربه منك». [212]

وفي هذا قال الشافعي:

إذا مَا خَلَوْتَ الدّهرَ يوْماً فلا تَقُلْ ... خَلَـوْتُ ولكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

ولاَ تـحْـسَبَنَّ اللهَ يَـغفَلُ سَـاعَةً ... وَلا أنَ مَـا يُخفَى عَلَيْهِ يَغِيـبُ

قال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[213]: «**قُطب الطاعات للمَرء في الدنيا هو إصلاحُ السرائر وتركُ إفسادِ الضمائر**». انتهى.

وقال القحطاني في «النونية»:

وَإِذا خَـلَـوتَ بِرِيبَةٍ في ظُلْـمَةٍ ... وَالنَفسُ داعِـيَةٌ إِلى الطُغيـانِ

فِاستَحي مِـن نَظَرِ الإِلَهِ وَقُـل لَهَا ... إِنَّ الَّذي خَلَـقَ الظَـلامَ يَـراني

211- «مدارج السالكين» (2/ 325).

212- انظر: «صفة الصفوة» (1/ 418) و(2/ 81).

213- «روضة العقلاء» (ص 27).

لأن ذنوب الخَلَوات، من أعظم المهلكات، وهي دَيدَنُ المنافقين والمنافقات. **قال تعالى:** ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

فالله جل وعلا علمه محيط بكل شيء، وإن ظننت أنك تعصي الله في مكان لا يراك فيه، فبئس ما ظننت بربك، الذي لا تخفى عليه خافية. وهو القائل في محكم تنزيله:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام: ٦٠]، وقال سبحانه:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[آل عمران: ٥]، وقال:﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ – ١٤]، وقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[الرعد: ٨ – ١٠]...

وَعَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا**». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهَّ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ. قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهَّ انْتَهَكُوهَا**» .[214]

214– رواه ابن ماجه (4245)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

قال بعضهم لمن استوصاه: «**اتق الله أن يكون أهونَ الناظرين إليك**»، وفي هذا المعنى يقول بعضهم:[215]

يـا مُـدمِنَ الـذَّنْبِ أمـا تَسـتَحِي ... واللهُ في الخَلْـوة ثانِيكَـا
غَـرَّكَ مِـن ربِّـكَ إمهالُـه ... وسِـتْرُهُ طُـولَ مَسَـاوِيكَا

وقال وهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**اتق أن تسُبَّ إبليسَ في العلانية، وأنتَ صديقُه في السِّر**».[216]

وفي قصيدة «ليس الغريب» لزين العابدين علي بن الحسين:

أَنَـا الَّـذِي أُغْلِـقُ الأَبْـوابَ مُجْتَـهِداً ... عَـلى المَـعاصِي وَعَـيْنُ الله

قال السري السَّقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**احذر لا تكون ثناء منشورا وعيبا مستورا**»[217].

يقول ابن القيم[218]: «وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعصي مَن هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه وهو بعينه غير مُتوارٍ عنه...». انتهى.

ومَن أصلح سريرته، وخاف الله في السر والعَلَن، فاحَ طيبه بين الخلق، وعلى عكس هذا من هابَ الخلق، ولم يحترم خلوته بالحقِّ.

قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى، فيُلقِي اللهُ بُغضَهُ في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر**».[219]

قال سفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مَن تَزَيَّنَ للناس بشيءٍ يَعلمُ اللهُ منه غيرَ ذلك شانَهُ اللهُ**». وقال:

215- «مجموع رسائل ابن رجب» (1/ 153).

216- «صفة الصفوة» (1/ 422).

217- «صفة الصفوة» (1/ 498).

218- انظر: «الجواب الكافي» (ص 84).

219- انظر: «صيد الخاطر» (ص 126-127).

«إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور» [220].

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾[الأنعام: ١٢٠].

والموجب لـخَشيته الله في السر والعلانية أمور منها: [221]

1 – قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي.

2 – **ومنها:** النظر في شدة بطشه وانتقامه، وقوته وقهره، وذلك يوجب للعبد ترك التعرض لمخالفته، كما قال الحسن: «ابن آدم، هل لك طاقة بمحاربة الله؟ فإن من عصاه فقد حاربه، وقال بعضهم: «**عجبت من ضعيف يعصي قويًّا**».

3 – **ومنها:** قوة المراقبة له، والعلم بأنه شاهد ورقيب على قلوب عباده وأعمالهم، وأنه مع عباده حيث كانوا.

220– «صفة الصفوة» (1/ 425، 426).

221– «مجموع رسائل ابن رجب» (2/ 462)، مختصرا.

كمالُ حالهم في نُصح الخَلق

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نَــصَحُوا الخليقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِم بِالعِلْمِ والإِرْشَادِ وَالإِحْــسَــانِ

فهؤلاء الذين بلغوا هذه الدرجات العليا من إخلاص، وصدق، وحب، وخوف، ورجاء، وتوكل، وذِكر، وغير ذلك من المنازل التي مرَّت معنا، **حالهم مع الخَلق كما قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[نَــصَحُوا الخليقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِم]

فهم نَقاوة المسلمين، وأعظم الناس نصحا للناس.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ [222]: «وأهل السنّة والجماعة يتّبعون الكتاب والسنّة ويطيعون الله ورسوله، **فيتبعون الحقّ ويرحمون الخلق**». انتهى.

وقد ذكر الله في كتابه عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنهم نصحوا لأممهم [223] كما أخبر الله بذلك عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وعن هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قال لقومه: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وعن صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قال بعد أن أهلك الله قومَه: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف: ٧٩].

قال العلامة ابن سعدي [224]: «**صلاحُ القلب بكمال الإنابة إلى الله وقوة التوكل عليه، وتَمامِ الإخلاص له، ومَحبَّة الخير لكافة الخلق، وفسادُه ونَقصُه بضدِّ ذلك**». انتهى.

وهم في هذا النصح مخلصون طالبون للأجر من الله، والخيرِ للمنصوح، ولهذا **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

222- «الفتاوى» (3/ 174)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (ص 251).

223- انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص 116).

224- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 11).

[نَـصَحُوا الخليقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِم]

ومحبوبُهم هو الرحمان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهم لا يطلبون من الناس أجرا، ولا ثناء، وهذا سبيل المرسلين. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[هود: ٥١]، وقال: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء] في خمسة مواضع من سورة الشعراء (الآيات: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠)... والآيات في الباب كثيرة.

فسؤال الأجر سِمَةُ الذي لا يرجو الله والدار الآخرة، أما أتباع الأنبياء والمرسلين فهم على طريقتهم، لا يسألون من الناس الأجر، ولا يتعلقونَ بالخلق، لأنهم ناصحون للناس في رضا الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨].

فمن اتبع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فينبغي له أن يتَّصِف بهذه الأوصاف.

ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُٱللَّهُ عند هذه الآية من «مسائل كتاب التوحيد» أن فيها: «التَّنبيه على الإخلاصِ، لأنَّ كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحقِّ، فهو يدعو إلى نفسه». انتهى.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ معلِّقا: «**فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلا أن يقوم دين الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقاً كان أم باطلاً**». انتهى.

قال ابن رجب عند حديث «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[225]: «**والنصيحة لعامة المسلمين**: إرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم...». انتهى.

225- «جامع العلوم والحكم» (ص 345).

فالسائرون إلى الله يبلِّغُونَ الناسَ الخيرَ، وَلاَ يَغُشُّونَهُم، **ويقولونَ الحقَّ، على الوجه الحقِّ، ولا يبالونَ بسخط الخَلقُ في مقابلة الحق**، لأنهم يعملون بقول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَى الله بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ الله تعالى عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخَطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عليه الناس**». (226)

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين، عِياذا بالله من ذلك!. (227)

فالذين حققوا هذه المنازل العظيمة، يُصلحونَ الخَلقَ بما يرونه نصيحةً لهم، لا بما يرضاه الناس ويَهوَونه. فإن العامة والدَّهماء إنما سُمُّوا عامَّةً من العَمَى وقِلَّةِ البصيرة. فلا ينبغي لك أن تبذل للناس ما يحبونه، ولكن ابذُل لهم ما يرضاه الله ولو أَبَى من أَبَى.

قال ابن الجوزي (228): «العاقل من يحفظ جانب الله ﷻ، وإن غضب الخلق. **وكل من يحفظ جانب المخلوقين، ويضيع حق الخالق، يقلب الله قلب الذي قصد أن يرضيه فيسخطه عليه.**

قال المأمون لبعض أصحابه: «**لا تعص الله بطاعتي فيسلطني عليك**» ...

وعلى ضد هذا، كل من يراعي جانب الحق والصواب، يرضى عنه من سَخِطَ عليه... فينبغي أن يحسن القصد لطاعة الخالق، وإن سخط المخلوق، فإنه يعود صاغرا. ولا يسخط الخالق، فيفوت الحظان جميعا». انتهى.

إذا صحَّ مِنكَ الوِدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ فَكُلُّ الذي فوقَ التُّرابِ تُرابُ

226- رواه ابن حبان في صحيحه (1/ 510) رقم 276 واللفظ له، والترمذي (4/ 609) رقم 2414، وقال الألباني: صحيح.

227- «تيسير العزيز الحميد» (ص 426).

228- «صيد الخاطر» (ص 189)، باختصار.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة**».[229]

قال ابن سعدي في منظومة «منهج الحق»:

وَقَلْبَكَ طَهِّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ

وَجَمِّلْ بِنُصْحِ الْخَلْقِ قَلْبَكَ إِنَّهُ لَأَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ

وقد قال أحد السّلف: «وددت أنّ جسدي قرّض بالمقاريض وأنّ هذا الخلق أطاعوا الله».

«يعني: لو كان جسده قطّع بالمقصّات الكبار والنّاس أطاعوا الله لكان الأمر هيّنا، **وهذا من عظم محبّته لهم**، وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدعو في سجوده يقول: «**اللّهمّ إن قبلت من عصاة أمّة محمّد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فداءً، فاجعلني فداءً لهم**». وهذا أعظم ما يكون من المحبّة للخلق والنّصح لهم...»[230].

وقد قيل: «كل ناصحٍ صديق، وليس كل صديقٍ ناصحا».[231]

229 – «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (8/ 103).

230 – من كلام العلامة صالح آل الشّيخ وفقه الله في «اللّآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية» (2/ 625).

231 – «الأخلاق» لابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 24).

فهؤلاء القوم، كما **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[نَــصَحُوا الخليقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِم]

بماذا نصحوهم؟ بأعظم شيء يوصلهم إلى تلك المنازل العليا، وهو:

[بِالعِلْمِ والإِرْشَادِ وَالإِحْسَــانِ]

فأعظم ما تُقَدِّمُه للناس نصحهم وإرشادهم للخير، وأعظم خير التوحيد، وتحذرهم من الشر، وأعظم شر الشرك. فهؤلاء الذين ذكرهم الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد كمَّلُوا أنفسهم، وكمَّلُوا غيرَهم، وهذه منزلة عالية، يَمُنُّ الله بها على خاصة عباده.

فلا ينبغي لمن عَرفَ فضلَ التوحيد وخَطرَ الشرك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهال، **ويقولون**: اعمل بالحق واترك الناس وما يعنيك من الناس؟ بل يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما كان ذلك شأن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين [232].

ومن حِكَمِ أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما تصدق مؤمن بصدقة أحب إلى الله ﷻ من موعظة يعِظُ بها قومَه فيفترِقون قد نفعَهم الله ﷻ بها» [233].

قال الشيخ السعدي [234]: «**ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة**، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين». انتهى.

نكتة بديعة في أهمية الدَّعوة إلى التوحيد وخطر كتمانه

حذَّر الله تعالى من كتمان الحق، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩]، وأعظم حق

232- «تيسير العزيز الحميد» (ص 94).

233- «صفة الصفوة» (1/ 242).

234- «القول السديد» (ص 27-30).

هو التوحيد. ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٦٣]. **وفي هذا نكتة بديعة نبه عليها القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «تفسيره»** [235]**، فقال: «لما حذَّر تعالى من كتمان الحق بيَّن أنَّ أولَ ما يجب إظهارهُ ولا يجوز كتمانه أمرُ التوحيد**، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع، ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء». انتهى.

قلت: ومما يؤكد هذا، أنه جاء في الآيات بعدها الكلام على عاقبة من لم يهتد لحقيقة التوحيد، وعاند ربه بأعظم ظلم وأقبح ذنب، وهو اتخاذ الأنداد من دون الله سبحانه، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، الآيات [البقرة: ١٦٥- ١٦٧].

235- (2/ 190). وانظر: رسالة نافعة بعنوان: «مقاصد سورة البقرة» للشيخ عبد المالك رمضاني وفقه الله.

تَعلُّق قلوبهم بالله

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

صَــحِبُــوا الخَلائِقَ بِالجُسُومِ وإِنَّمَا أَرْوَاحُــهُمْ فِي مَنْزِلٍ فَوْقَــانــِي

فهم في الأرض معنا، لكنَّ قلوبَهم عند الله جل وعلا، فما من شيء يقومون به إلا والغاية منه هي الله، والقلب متعلق بالله، حبا ورجاء وخوفا.

فَمَع ما تحلَّوا به مِن الفَضَائِلِ ومِن نُصحِ للخَلق، فصُحبَتُهم لهم بالظَّاهر والجِسم، **وأما قلوبُهم وأرواحُهم، فإنها تجولُ حولَ الحبيب وتطلبُ من قُربه أعظمَ نصيب، فتارةً تنكسر بين يديه، وتخشعُ وتخضع لديه،** وطوْرًا تشكُره لِحُبِّه، وتدلُّ لاستحضارِ بِرِّه وقُربِه، ثم تميلُ إلى مَراضيه، فتجتهدُ في عبادتِه وتحسنُ إلى مخلوقاتِه، فهؤلاء هم الناس، بل هم العقلاء الأكياس، ولا حول ولا قوةَ إلا بالله [236].

قال بعض السلف: «إن هذه القلوب جوالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُشِّ»[237]. الحُشُّ: المرحاضُ، والكنيف، وبيت الخلاء. [238]

فما أوسع الفرق بين قلوب تجول حول الحش إذا جالت النفوس العلوية حول العرش، وتندس في الأحجار إذا طارت النفوس الزكية إلى أعلى الأوكار... [239]

236- انظر: شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 28).

237- انظر: «شرح حديث النزول» لابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 149).

238- انظر: «المصباح المنير» للفيومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 78).

239- انظر: «روضة المحبين» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 160).

ومن كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وهو يمدح العلماء، قال:** «صحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلَّقةٌ في المَحَلِّ الأعلى...». [240]

وقال آخر: «**أبدانُ العارفين في الدنيا وقلوبُهم في الآخرة**» [241].

كل الناس في الأرض، غير أن قلوب البعض في السماء، والبعُض قلوبهم في أماكن الخلاء.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾[هود: ٢٤].

شتَّان بين مُشَرِّق ومُغرِّبِ

وقسَّم شمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **القلوب إلى قلبين** [242]**، وهما:**

قلب: هو عرش الرحمان، ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير.

وقلب: هو عرش الشيطان، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم فهو حزين على ما مضى مهموم بما يستقبل مغموم في الحال...

والنور الذي يدخل القلب إنما هو من آثار المثل الأعلى، فلذلك ينفسح وينشرح، وإذا لم يكن فيه معرفة الله ومحبته، فحظه الظلمة والضيق». انتهى.

والناس في هذا الباب درجات كثيرة [243]. فإذا قوي حال المحب ومعرفته، لم يشغله عن الذكر بالقلب واللسان شاغل، فهو بين الخلق بجسمه، وقلبه معلق بالمحل الأعلى، كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصفهم: «**صحبوا الدنيا بأجساد أرواحها معلقة بالمحل الأعلى**». وفي هذا المعنى قيل:

240- «صفة الصفوة» (1/ 124).

241- «لطائف المعارف» (ص 407).

242- انظر «الفوائد» (ص 28)، و«الجواب الكافي» (ص 120).

243- انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص 685)؛ و«لطائف المعارف» (ص 407).

جِسمِي مَعِي غَيرَ أَنَّ الرُّوحَ عِندَكُمُ فَالجِسمُ في غُربةٍ والرُّوحُ في وَطَنِ

وقال غيره:

ولقَد جَعلتُكَ في الفُؤاد مُحدِّثي وأَبحْتُ جِسمي من أراد جُلوسي

فالجِسمُ منِّي للجَليس مُؤَانسٌ وحَبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي

وهذه كانت حال الرسل والصديقين عليهم السلام.

منزلة الرِّعاية والخوف من سوء الخاتمة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بـــاللهِ دَعْـــوَاتُ المشَـاهِـــدِ كُلِّهَا خَوْفاً عَلى الإيـــمَانِ مِنْ نُقْصَـــانِ[244]

بالرغم من منازل الحقِّ التي نَزَلُوها، ومنزلة النصح للخلق التي تبوَّؤوها، والأرواح الفوقانية التي مُنِحوها، فهم مع ذلك يخافون على إيمانهم من النقصان، وعلى أنفسهم من الخِذلان.

وهذه **منزلة الرعاية**[245] **لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان**، وذلك أن العبد لا ينبغي له أن يعرض عن تدبر أحواله، والتفكر في نقص أعماله، بل يبذل جهده قبل العمل، وفي نفس العمل وتصحيحه وتحسينه، ثم يصونه عن المفسدات، وينزهه عن المنقصات، **فإن حفظ العمل أعظم من العمل، فكلما ازداد العبد رعاية لعمله واجتهادا فيه ازداد إيمانه، وكلما نقص من ذلك نقص من إيمانه بحسبه.**[246]

244- يَرى الشيخُ عبد الرزَّاق العباد البدر في شرحه أنَّ الأقربَ ضبطُ البيت على هذا الوَجه:

رَعَوْا الحقائقَ والمشاهِدَ كُلَّها خَوْفاً عَلى الإيـــمَانِ مِنْ نُقْصَـــانِ

وبهذا، يَظهَر أنَّ المقصودَ مِن هذا البيت اللإشارَة إلى «مَنزلة الرعاية»، وذلك بقوله: (رَعَوْا).

قلت: ولهُ وَجهٌ، ولكنه مُخالِفٌ لما قُرِئَ على المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي أثبته هو الذي يختارُه شيخُنا العصيمي، وقد قرأ المَنظومَة على تلميذ الناظم: الشيخ عبد الله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

245- قال ابن القيم في «مدارج السالكين» (1/ 437): «**منزلة الرعاية: وهي مراعاة العلم وحفظه بالعمل،** ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص، وحفظه من المفسدات، ومراعاة الحال بالموافقة، وحفظه بقطع التفريق. فالرعاية صيانة وحفظ». انتهى.

246- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 29).

فإنهم يخافون على إيمانهم من الضياع، **إذ ليست العبرة بنقص البداية، ولكن العبرة بكمال النهاية.**

قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[المؤمنون:٦٠-٦١]. قالت عائشة: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: **أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟** قَالَ: «**لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾**».[247]

فهم يفعلون الطاعة، ومع ذلك يخافون من عدم القبول. ولذلك يقول العلماء: لا بد للطائع أن يخاف الله ولو كان في أعظم مقامات الطاعة.

وخوف الله هنا يكون من جهتين:

الجهة الأولى: أن المؤمنَ يخافُ عَدَمَ قبول عمله.

والجهة الثانية: أن المؤمنَ يخاف من سوء الخاتمة.

الخوف من عدم قبول العمل

فأما الجهة الأولى وهي: الخوف من عدم قبول العمل، فقد قال ابن عون: «**لا تثق بكثرة الْعَمَل، فإنك لا تدري يقبل منك أم لا؟** ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري هل كُفِّرَت عنكَ أم لا؟ لأن عملك مُغَيَّبٌ عنك كلُّه لا تدري ما اللهُ صانع به؟».

وكان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله،

247- رواه الترمذي(5/ 327) رقم 3175 – واللفظ له-، وابن ماجه (2/ 1004) رقم 4198، وهو في «السلسلة الصحيحة» (1 / 255) رقم 162.

ويخافون من رده، وهؤلاء الذين ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل**، ألم تسمعوا الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]». وعن فضالة بن عبيد، قال: «لأن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾».

قال ابن دينار: «الخوف على العمل أن لا يتقبل أشد من العمل». وقال عطاء السلمي: «الحذر: الاتقاء على العمل أن لا يكون لله». وقال عبد العزيز بن أبي رواد: «أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهم أيقبل منهم أم لا؟».[248]

قلت: وَلكنَّ بعضَ الناس إذا تكلَّمَ عن حاله، فكأنه قد اتخذ عند الله عهدا مِن فَرْط أَمنِهِ مِن مَكرِ الله جَلَّجَلَالُهُ، **وقد أشار إلى هذا ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بقوله**[249]: «ولقد قطع خوف سوء الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعا بالأمان ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾[القلم: ٣٩-٤٠]». انتهى.

قال الفُضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما يؤمنك أن تكون بارزت الله بعمل مقتك عليه، فأغلق دونك أبواب المغفرة، وأنت تضحك كيف ترى تكون حالك».[250]

248- «لطائف المعارف» (ص 295)، «الحجة في سير الدلجة» (1/ 458) و«مجموع رسائل ابن رجب» (1/ 382).

249- «الجواب الكافي» (ص 94).

250- «صفة الصفوة» (1/ 430).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [251]: «ومن الاغترار أن تسيء فترى إحسانا فتظن أنك قد سومحت، وتنسى ﴿**مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ**﴾[النساء: ١٢٣]». **وقال**: «واعلم أنه من أعظم المحن الاغترار بالسلامة بعد الذنب، فإن العقوبة تتأخر». **وقال**: «وعموم العوام يبارزون بالذنوب اعتمادا على العفو وينسون العقاب. ومنهم من يعتمد «أني من أهل السنة، أو أن لي حسنات قد تنفع»، وكل هذا لقوة الجهل». انتهى.

ولهذا قال سعيد بن جبير: «**رُبَّ حَسَنَةٍ أدخَلَت صَاحِبَهَا النَّارَ، وَرُبَّ سَيِّئَةٍ أدخَلَت صَاحِبَهَا الجَنَّة**». لماذا؟

قال أهل العلم: إن فاعل الحسنة عملها، فلم تزل بين ناظريه مُعجبا بها، مُغترًّا، مُدلِيا على ربه، مُستعليا، على خلقه، فزَخَّت في قفاه، فأدخلته النار. وإن فاعل السيئة لم تزل سيئته بين ناظريه، يخاف عاقبتها، ويخشى شؤمها، فهو بمنزلة واقف تحت جدار يخشى أن ينقضَّ عليه، فيحمله خوفه ذلك على دوام الإقبال على الله، فيغفر الله له ويدخله الجنة. [252]

ولهذا قال مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لأن أبيت نائماً، وأصبح نادماً، أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً**».

قال الحافظ ابن رجب [253]: «اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم في حق مولاهم، وتنكيس رؤوس عجبهم، أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات. **فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العجب**. وفي الحديث: «**لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ،**

251- «صيد الخاطر» (ص 133، 342).

252- من تعليق شيخنا صالح العصيمي وفقه الله على المنظومة (ص 6). وانظر «الفتاوى» لابن تيمية (10/ 172)، و«الوابل الصيب» لابن القيم (ص 4) فإنه مفيد جدًّا.

253- «لطائف المعارف» (ص 28) باختصار. وانظر: الفوائد» (ص 85).

الْعُجْبَ» [254].

قال الحسن: لو أن ابن آدم كُلَّما قالَ أصابَ، وكُلَّما عملَ أحسنَ، أوشكَ أن يجنَّ من العُجب.

قال بعضهم: ذنب أفتقر به إليه أحبُّ إليَّ من طاعة أدل بها عليه. **أنين المذنبين أحب إليه من زجل المُسَبِّحين** [255]**، لأن زَجَلَ المُسَبِّحين رُبَّما شابَهُ الافتخار، وأنينُ المذنبين يزينه الانكسار والافتقار.**

قال الحسن: إن العبد ليعمل الذنب فلا ينساه، ولا يزال مُتخوِّفا منه حتى يدخلَ الجنة. المقصود مِن زللِ المؤمن نَدَمُه، ومِن تفريطٍ أَسَفُه، ومن اعوِجاجِه تَقويمُه، ومِن تأخرِّه تَقديمُه، ومن زلقه في هوة الهوى أن يُؤخَذَ بيده فينجى إلى نجوة النجاة». انتهى.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية [256]: «والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه، ودعاء الله واستغفاره إياه، وشهوده بفقره وحاجته إليه، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو». انتهى.

254- رواه البزَّار في مسنده عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال الشيخ الألباني: حسن لغيره، («صحيح الترغيب والترهيب»، رقم 2921).

255- أي: صوت المُسَبِّحين.

256- «الفتاوى» (14/ 181). وانظر «مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية» لصالح الشامي (ص 88).

الخوف من سوء الخاتمة

وأما الجهة الثانية، فهي أن المؤمنَ يخاف من سوء الخاتمة.

وكيف يأمن من قلبه بين أصبعين؟ وكيف يطيب عيش من لا يدري بما يختم له؟ [257]

فإن الأعمالَ بالخواتيم، وكم من عبد سار إلى الله سيرا، ثم خُذِل في آخر عمره، والعياذ بالله.

والأمر كما يقول ابن رجب[258]: «**خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد، لا يطلع عليها الناس**». **وقال**: «**دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة**». انتهى.

ولا تظننَّ بربك ظنَّ السَّوء، فإنه لا يخذل عبده المطيع الصادق، فقد وعد سبحانه من عمل صالحا بالخير في الدنيا والآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]، وقال -وهو أكرم القائلين-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[النساء: ١٢٢]، في آيات كثيرة.

ومن ساءت خاتمته، فينطبق عليه وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**» [259].

257- انظر: «رسائل ابن رجب» (1/ 369).

258- «جامع العلوم والحكم» (ص 86).

259- رواه البخاري كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ لاَ يَقُولُ فُلاَنٌ شَهِيدٌ، رقم 2742 ومسلم كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ غِلَظِ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَأَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي النَّارِ، وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، رقم (112/ 179)، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ.

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ [260]: «**فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**: فيدع العمل الأول الذي كان يعمله، **وذلك لوجود دسيسة في قلبه - والعياذ بالله- هوت به إلى هاوية.**

أقول هذا لئلاّ يظن بالله ظن السوء: فوالله ما من أحد يقبل على الله بصدق وإخلاص، ويعمل بعمل أهل الجنة إلا لم يخذله الله أبداً. **فالله** ﷻ **أكرم من عبده، لكن لابد من بلاء في القلب**». انتهى.

وقال عبد الحق الأشبيلي[261]: «**وَاعْلَم أَن سوء الخاتمة أعاذنا الله مِنْهَا لَا يكون لمن استقام ظَاهره وَصلح بَاطِنه، وَإِنَّمَا يكون ذَلِك لمن كَانَ لَهُ فَسَاد فِي الْعقل وإصرار على الْكَبَائِر وإقدام على العظائم**، فَرُبمَا غلب ذَلِك عَلَيْهِ حَتَّى ينزل بِهِ الْمَوْت قبل التَّوْبَة ويثب عَلَيْهِ قبل الْإِنَابَة وَيَأْخُذهُ قبل إِصْلَاح الطوية فيَصْطَلِمَهُ الشَّيْطَان عِنْد تِلْكَ الصدمة ويختطفه عِنْد تِلْكَ الدهشة، وَالْعِيَاذ بِاللَّهِ ثمَّ العياذ بِاللَّهِ أَن يكون لمن كَانَ مُسْتَقِيمًا لم يتَغَيَّر عَن حَاله وَيخرج عَن سنته وَيَأْخُذ فِي غير طَرِيقه فَيكون ذَلِك سَببا لسوء الخاتمة وشؤم الْعَاقِبَة وَالْعِيَاذ بِاللَّهِ». انتهى.

قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ**﴾[آل عمران: ١٠٢]. **قال أبو الفداء ابن كثير في تفسير هذه الآية**: «أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، **فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه**، فعياذًا بالله من خلاف ذلك». انتهى.

ويشهد لهذا ما جاء عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعا أن النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُبْعَثُ كُلُّ**

260- «شرح الأربعين النووية» (ص 87).

261- «العاقبة في ذكر الموت»، وعلَّقَ عليه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (11/ 596) بقوله: «هو مَحمولٌ على الأكثر الأغلب». انتهى. وانظر: تفاسير السلف لقوله تعالى: ﴿مَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾.

عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ».[262]

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [263]: «وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك، لأنه يمكن أن تُخطفَ روحُك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه». انتهى.

فالمؤمن يخافُ أن يَضِلَّ قبلَ أن يَموتَ، وإن كان حَالُهُ الآن حَسَنًا.

و**أغبى الناس من ضلَّ في آخر سفره وقد قارب المنزل.** [264]

وفي هذا يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [265]: «بالله عليك تفكر فيمن قطع أكثر العمر في التقوى والطاعة، ثم عرضت له فتنة في الوقت الأخير، كيف نطح مركبه الجرف؛ فغرق وقت الصعود». **وقال**: «فالحذر الحذر فقد رأينا من كان على سنن الصواب ثم زل على شفير القبر». انتهى.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، **على أن العلمَ بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.**[266]

262- رواه مسلم كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ الْأَمْرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمَوْتِ، رقم (2878/ 83)، عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

263- «مختصر منهاج القاصدين» (ص 393).

264- «الفوائد» (ص 134).

265- «صيد الخاطر» (ص 103).

266- «مختصر منهاج القاصدين» (ص 393).

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [267]: «**ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت:**

مثل البدعة،

والنفاق،

والكِبر،

ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق». انتهى.

وعلى هذه الأمور، تدور عوائق السير إلى الله كما مرَّ معنا في أوَّلِ هذا الشرح من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولا ينجو يوم القيامة إلا قلب سليم، وصفه ابن رجب بقوله[268]: «**فالقلب السليم**: هو الذي ليس فيه شيء من محبة ما يكرهه الله، فدخل في ذلك سلامته من الشرك الجلي والخفي، ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي -كبائرها وصغائرها- الظاهرة والباطنة، كالرياء والعجب، والغل والغش، والحقد والحسد وغير ذلك.

وهذا القلب السليم هو الذي لا ينفع يوم القيامة سواه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٨ - ٨٩]». انتهى.

وعليه، فمن صفَّى سيرَه من العوائق والمُكدِّرات، كان حريًّا به أن يُكرَم في الحياة، وعند السَّكَرات، وبعد الممات. نسأل الله الكريم أن يجعلنا من عباده المُكرَمين في الدنيا والآخرة.

والاستعداد للخاتمة من وسائل النجاة، وهما استعدادان:

- **استعدادٌ في صلاح القلب**: وذلك بالعلم النافع الذي يُورِث في القلب العلمَ بالله

267- نفس المصدر (ص 391).

268- انظر: «رسائل ابن رجب» (1/ 383).

ﷻ ومعرفته وأسمائه وصفاته واليقين في ذلك.

- **واستعدادٌ في صلاح العمل**: بأن يمتثل الأمرَ، ويجتنب ما نَهَى الله عنه، أو نهى عنه رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يكون العمل خالصاً صواباً، خالصاً لله، ووفق منهج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يستغفر من الذنوب والخطايا.[269]

حال السلف مع الخواتيم

من تأمل حال السلف، عرفَ قدر خوفهم من الله، ومن سوء الخاتمة، بل والموت على غير التوحيد.

وبوَّبَ البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، «باب: خوفُ المؤمن من أن يحبطَ عملُه وهو لا يشعر».

وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يُختم لنا؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سَبَقَ لنا؟.[270]

قال بعضهم: «أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر».

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: «بات سفيان (أي الثوري) عندي فلما اشتد به الأمر جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله أراك كثير الذنوب، فرفع شيئا من الأرض فقال: «**والله لذنوبي أهون عندي من ذا. إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت**».[271]

وبكى النخعي عند الموت وقال: أنتظر رسول ربي، ما أدري أيبشرني بالجنة أم بالنار؟

وجزع بعض الصحابة عِنْدَ موته، فسئل عن حاله فَقَالَ: إن الله قبض خلقه قبضتين، قبضة

269- «شرح الطحاوية» للعلامة صالح آل الشيخ وفقه الله (2/ 499-500).

270- «جامع العلوم والحكم» (ص 87).

271- انظر: «صفة الصَّفوة» لابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (2/ 85).

للجنة وقبضة للنار ولست أدري فِي أي القبضتين أنا؟ [272]

وقال السري السَّقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إني لأنظر إلى أنفي في كلِّ يوم مرتين مخافةَ أن يكون قد اسودَّ وجهي» [273]. والأخبار في هذا الباب كثيرة.

شُرورُ النفس كثيرة، والناجي من احتمى منها

ومن أسباب الخوف من الخاتمة أنَّ المؤمن يعلم أنَّ كمائن النفس كثيرة، والفقيه من علِمَ خباياها، وسعى في إصلاحها وهداها، وهذا لا يكون إلا بالاعتماد على الله وصدق التوكل عليه، وكمال الاستعانة به سبحانه.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [274]: «**فأما الطبع فجواذبه كثيرة، وليس العجب أن يَغلِب، إنما العجب أن يُغلَب**». انتهى.

واحْـذَر كَـمَائِنَ نَـفْسِكَ الـلاَّتِي مَتَى خَرَجَتْ عَلَيكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَـانِ

وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول في خطبة الحاجة: «**وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا**» [275].

فإنَّ شرورَ النفس عظيمةٌ، والمُوَفَّقُ من علِمَها وسعى لوأدها قبل أن تُفسِد عليه خاتمتَه.

ومن بدائع ابن حزم [276]: «رِياضَةُ الأنفس أصعب من رياضة الأُسْد؛ لأن الأُسْدَ إذا

272- «الحجة في سير الدلجة» (1/ 458) ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب».

273- «صفة الصفوة» (1/ 498).

274- «صيد الخاطر» (ص 8).

275- رواه ابن ماجه (1/ 609) رقم 1892، والترمذي (3/ 405) رقم 1105، والنسائي (6/ 89) رقم 3277 عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» رقم 3149: صحيح. ورواه الإمام أحمد (4/ 477) رقم 2749 عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

276- «الأخلاق» (ص 53).

سُجنت في البيوت التي يتخذها الملوك، أُمِنَ شرُّها، والنفسُ وإن سُجِنَت لم يُؤمَن شرُّها». انتهى

قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النساء: ٧٩].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية [277]: «**وفي قوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ من الفوائد:**

أن العبد لا يركن إلى نفسه، ولا يسكن إليها. فإن الشر لا يجيء إلا منها. ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساؤوا إليه، فإن ذلك من السيئات التي أصابته. وهي إنما أصابته بذنوبه، فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن يعينه على طاعته. فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر...

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه: دعاء الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة: ٦ - ٧]، فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب.

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين: إنه قد هداه، فلماذا يسأل الهدى؟

وأن المراد بسؤال الهدى: الثبات أو مزيد الهداية...

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن، والمأمورين بهذا الدعاء، ورأى ما في النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة، **فيعلم أن الله - بفضله ورحمته - جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير**

277- انظر: «الفتاوى» (14/ 181وما بعدها) باختصار، أو رسالة «الحسنة والسيئة» (ص 81)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (ص 269).

المانعة من الشر.

ومما يبين ذلك: أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا... فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل -فرعون ومن قبله- لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط، ولكن الأمر كما قال تعالى:﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾[فصلت: ٤٣]...

قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون، غير أن فرعون قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر...». انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

منزلة الزُّهد وجمعيَّةُ القلب على الله

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَـزَفُوا القُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِـوَى الرَّحْمَـنِ

أي: **فرَّغوا قلوبهم عن جميع ما يشغل عن الله ويبعد عن رضاه، وهذا حقيقة الزهد.** [278]

فهم وَقفُوا أنفسهم على طاعة الله جل وعلا، وقطعوها عن كل ما يشغلهم عن سيرهم إلى الله جَلَّجَلَالُهُ. فهم يتقلبون في منازل السير إليه سبحانه، لا يشغلهم عنه شاغل. فهم لله وبالله ومع الله. ومن كان هذا حاله، فإنه يصل إلى الله جل وعلا.

قال ابن القيم [279]: «تلمَّح القومُ الوجودَ ففهموا المقصود، فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل، وشمَّروا للسير في سواء السبيل، فالناس مشتغلون بالفضلات، وهم في قطع الفلوات». انتهى.

وقال ابن سعدي معلِّقا على هذا البيت [280]: «**ولا يكفي هذا التفريغ حتى يمتلئ القلب من الأفكار النافعة والعزوم الصادقة**، فتكون أفكار العبد في كل ما يقرب إلى الرحمن؛ من تصور علم، وتدبر قرآن، وذكر الله بحضور قلب، وتفكر في عبادة وإحسان، وخوف من زلة وعصيان، أو تأمل لصفات الرحمن وتنزيهه عن جميع العيوب والنقصان، أو تفكر في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأهواله، أو في الجنة ونعيمها والنار وجحيمها، فأفكارهم حائمة حول

278- قال شيخ الإسلام: «والزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة... فأما الزهد في النافع فجهل وضلال. انتهى. انظر: «الفتاوى» (10/ 290)، و«فهارس الفتاوى» (36/ 677)، و«منزلة الزهد» في «مدارج السالكين» (1/ 401)؛ و«جامع العلوم والحكم» عند شرح الحديث رقم 31 من الأربعين، وهو حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الزهد.

279- «الفوائد» (ص 60).

280- «شرح المنظومة» (ص 30).

هذه الأمور، متنزهة عن دنيات الأمور والتفكر بما لا يجدي على صاحبه إلا الهم والوبال وتضييع الوقت وتشتيت البال غير نافع للعبد في الحال والمآل». انتهى.

فمن أراد الفوز بالسعادة الأبدية، فليلزم عَتَبَة العبودية، وليشغل وقته بما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إني لأبغض الرجل أن أراه فارغا ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة**».

وقال عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما يَستَحِي أحدُكُم أن لو نُشِرَت عليه صَحيفَتُه التي أَمَلَّ صَدرَ نهارِه، فإنَّ أكثرَ ما فيها ليس مِن أمرِ دينِه ولا دُنياه».[281]

ومن جميل القول، **ما ذكره ابن حزم**[282]: «**حد السُّخف**: هو العمل والقول بما لا يُحتاج إليه في دين ولا دنيا». انتهى

وجاءَ في خاتمة «**المقدمة العِزِّيَّة**»[283]: «**ينبغي للإنسان ألاَّ يُرى إلا مُحصِّلًا حسنةً لمعادِه، أو درهمًا لمعاشِه**». انتهى.[284]

ومصداق هذا في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧ - ٨].

فقوله: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ**﴾ أي: إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء، ﴿**وَإِلَىٰ رَبِّكَ**﴾ وحده ﴿**فَارْغَبْ**﴾ أي: أعظِم الرغبة في إجابة دعائك

281- «صفة الصفوة» (1/ 415).

282- «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص 39).

283- وهي من المتون المختصرة عند المالكية، وصاحبها: هو أبو الحسن علي بن خلف المنوفي المصري الشاذلي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت 939 هـ).

284- استفدت هذا من شرح شيخنا العصيمي على رسالته «تعظيم العلم».

وقبول عباداتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لَعِبوا وأعرَضوا عن ربهم وعن ذكرِه، فتكونَ من الخاسرين. انتهى نقلا عن «تفسير السعدي».

منزلة الإخلاص، وإرادة وجه الله

قال رَحِمَهُ اللَّهُ بعدها:

حَـــرَكَاتُهُـــمْ وَهُمُومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ لِلَّهِ لا لِلْـــخَـــلْقِ وَالشَّيْـــطَـــانِ

أشار هنا إلى ثلاثة أحوال قلبية:

أوَّلها: الحركة وهي مجرَّد الإرادة.

ثانيها: الهم وهو الإرادة المقترنةُ بالجزم.

ثالثها: العزم وهو الإرادة المقترنةُ بالجزم مع تهيُّئ فعل الأسباب المرادة.[285]

قال ابن رجب[286]: «**والعزم نوعان:**

أحدهما: عزم المريد على الدخول في الطريق، وهو من البدايات.

والثاني: العزم على الاستمرار على الطاعات بعد الدخول فيها، وعلى الانتقال من حال كامل، إِلَى حال أكمل منه، وهو من النهايات.

ولهذا سمى اللهُ تعالى خواص الرسل أولوا العزم -وهم خمسة- وهم أفضل الرسل». انتهى.

والمذكور في البيت من حركة، وهم، وعزم، كلُّها لله لا للخلق والشيطان. فالسائرون إلى الله لا يُراؤونَ الناس، ولا يطلبون ثناءَهم، وإنما يطلبون الله جل وعلا، ومن طلب الله بلَّغَهُ الله ما يريد، ومن طلب رؤية الناس رُبما نالها في الدنيا، وجاء يوم القيامة مفلسا.

وفي الحديث: «**وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ أَوْ عَالِمٌ أَوْ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ**».[287]

285- من تعليق شيخنا العصيمي على المنظومة (ص 9). وانظر: «رسائل ابن رجب» (1/ 373) ففيها تعريفات أخرى للعزم.

286- «رسائل ابن رجب» (1/ 373).

قال ابن الجوزي [288]: «آه مِن سِكِّير لم يَعلم قَدْرَ عَربَدَتِهِ إلا في وقت الإفاقَة». انتهى.

إنَّ منزلة الإخلاص من أعظم ما يُوفَّقُ إليه المرء، وهي سبيل المؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥ – ١٤٧].

فالمنافقون نفاقا أكبرَ، الذين أخبر الله أنهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ١٤٢]، منزلتهم عند الله ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

«وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق إلا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ له الظواهر والبواطن، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، والتجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم، ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان لله.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة وسلِمُوا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ

=

287- رواه مسلم كتاب الْإِمَارَةِ، بَابُ مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، رقم (1905/ 152) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

288- «صيد الخاطر» (ص 59).

﴿ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما خصوصا في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقفِ الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: (وسوف يؤتيهم أجرا عظيما)، مع أن السياق فيهم. بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة – لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثوابًا أو عقابا وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، **فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم**.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال، الدائبين في الأعمال، جزيل الثواب وواسع الإحسان. ومن ترك شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأي شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه». قاله ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره».

أصحاب هذه المنازل هم أحق الناس بالصحبة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نِـــعْـمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتي تُفْضِي إلى الخَـيْرَاتِ وَالإِحْسَـانِ

فهؤلاء الناس الذين مرَّ وصفهم في هذه المنازل هم أحق الناس بالصحبة. إن كنت مصاحبا فاصحب هؤلاء. وما لا يُدرك كله لا يترك كله. فالناس في هذه الأحوال بين مستقل ومستكثر، ولكن هؤلاء هم الذين يسعد العبد بصحبتهم، **وهم الذين أمر الله نبيَّه أن يصبر نفسَه معهم، فقال سبحانه:** ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨]، **ونهاه أن يطردهم بقوله:** ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٢].

من الآثار الحسنة لصحبة الأخيار

ومن لطيف ما ذُكِر، ما قاله ابن كثير مُتَحدِّثا عن كلب أصحاب الكهف، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[289]: «**ولما كانت التَبَعِيَّة مؤثِّرة** حتى كان في كلب هؤلاء، صار باقيا معهم ببقائهم، **لأن من أحب قوما سعد بهم، فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام**». انتهى.

قال ابن حزم الأندلسي [290]: «**من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها**، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء،

289- «البداية والنهاية» (2/ 137)، وفي «تفسيره» نحو هذا.

290- «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص 17).

والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة. **ومن طلب الجاه والمال واللذات، لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة**، والثعالب الخلبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة». انتهى.

وفي الاتصال بالأخيار فوائدُ عديدةٌ، منها:

- أن كسب صداقة الأخيار واغتنام أدعيتهم في الحياة وبعد الممات من أعظم المكاسب وأجل المغانم.
- أنه بسبب ذلك رُبَّما حصل إفادة واستفادة من الطَّرفين، أو نصيحة من أحد الجانبين.
- أنه بسبب ذلك يحصل من الأدعية والتوجيهات القلبية ما ينتفع به كُلٌّ منهما من الآخر في الحياة وبعد الممات.
- أن هذا من البشرى في الحياة الدنيا، فمتى وُفِّقَ العبدُ لمحبة الصالحين وصُحبتهم والاتصال بهم، رُجي أن يدخُلَ تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[مريم: ٩٦]، أي: منه ومن دعاء الصالحين...[291]

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الكِيرِ**[292]**، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ**[293]**، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**».[294]

291- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 80-82) بتصرف.

292- الكير: منفخ الحداد الذي ينفخ به النار.

293- أي: يُعطيك.

وفي الحديث فضيلة صحبة الصالحين، وخطر مجالسة الطالحين من أهل الفسق والفجور والبدع والكفر.

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا مُضَافًا لأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَإِيَّــاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةَ سَاقِطٍ فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِن عُلاكَ وَتُحْـقَرا

سَتُحقر إن صحِبت الساقطينَ والبطالين، فإن العُزلة أفضل من صحبة هؤلاء، ولَأَن تكون وحدَك أفضل من أن تصحب البطَّالين.

قال مالك بن دينار: «**إنك أن تنقل الحجارة مع الأبرار، خيرٌ من أن تأكلَ الخَبيص**[295] **مع الفجار**».[296]

قال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[297]: «العاقلُ يَلزم صُحبَـة الأخيار، ويُفارِق صُحبَـة الأشرار، لأن مَوَدة الأخيار سريعٌ اتصالها، بطيءٌ انقطاعها، ومودةُ الأشرار سريعٌ انقطاعها، بطيءٌ اتصالها. وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، ومن خادَن الأشرارَ لم يَسلَم من الدخول في جُملتهم.

فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الريب لئلا يكون مُريبا، **فكما أن صُحبَـةَ الأخيار تورث الخير، كذلك صُحبَـةُ الأشرار تورث الشر**». انتهى.

=

294 – رواه البخاري كِتَابُ الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ، بَابُ المِسْك، رقم 5214، ومسلم –واللفظ له– كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ، وَمُجَانَبَةِ قُرَنَاءِ السُّوءِ رقم (146– 2628).

295– نوع من الحلوى يُصنع من التمر والسمن.

296– «روضة العقلاء» (ص 100).

297– المصدر السابق (ص 99).

قال شعيب بن حرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا تجلس إلا مع أحد رجلين: رجلٍ جلستَ إليه يُعلِّمُكَ خيرا فتقبلَ منه، أو رجلٍ تُعلِّمُه خيرا فيقبلَ منك، والثالث: اهرب منه**».[298]

قال السعدي [299]: «صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين». انتهى.

وقال بعضهم: «**إياك ومصاحبة الأشرار، وأن تنقطع عن الله بصحبة الأخيار**».[300]

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾[آل عمران: ١١٨]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾[الصافات: ٥٠ - ٥٧]، أي: كاد أن يَهلَكَ معه لو أطاعه، لأن صحبة الأشرار من أعظَمِ الخَطَر، وجالبةٌ لكل ضَرَر.[301]

وفي مسائل «كتاب التوحيد»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب في قصة إغواء أبي جهل وعبد الله بن أمية لأبي طالب وصرفه عن قول «لا إله إلا الله»، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفيه مضرة أصحاب السوء على الإنسان**»، فينبغي الـحَذَرُ من قربهم، والحذر من الاستماع لهم.[302]

298- «صفة الصفوة» (2/ 5).

299- «بهجة قلوب الأبرار» (ص 185).

300- «صفة الصفوة» (1/ 502).

301- انظر: «أضواء البيان» (4/ 33) عند تفسير: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾[الكهف: ١٨].

302- انظر: «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» (ص 144).

ومن دقيق الاستنباط قولُ الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند شرح حديث: «**أَسْرِعُوا بِالجَنَازَةِ، فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا عَلَيْهِ، وَإِنْ تَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُم**»: «قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُم**): يؤخذ منه تركُ صحبة أهل البطالة غير الصالحين».

قلت: وهذا من فِقهه وشُفوفِ نَظَره رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك أنه إذا كان غيرُ الصالح لا يصلح أن يَصحب المؤمن وهو ميت، فما بالك بصحبته حال حياته!؟؟

وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**».[303]

وَمَا صَاحِبُ الإِنسَانِ إلاَّ كَرُقعَةٍ عَلَى ثَوبِهِ فَليَتَّخِذْهُ مُشَاكِلاَ

قال أبو الحسن الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[304]: «الإنسان مَوسومٌ بسيماء مَن قارَب، ومَنسوب إليه أفاعيلُ مَن صاحَب.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما من شيء أدل على شيء، ولا الدخان على النار، من الصاحب على الصاحب.

وقال بعض الحكماء: اعرف أخاك بأخيه قَبلَك.

وقال بعض الأدباء: يُظَنُّ بالمرء ما يُظَنُّ بقَرِينه». انتهى.

قلت: ومن أمثال العرب: «من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه»، و«سَلْ عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار».

قال المأمون: الإخوان على ثلاث طبقات:

303- حديث حسن رواه أحمد (14/ 142) رقم 4817، وأبو داود (4/ 259) رقم 4833، والترمذي (4/ 589) رقم 2378، وهو في السلسلة الصحيحة (2/ 597) رقم 927.

304- «أدب الدنيا والدين» (ص 267) باختصار.

فإخوان كالغذاء لا يستغنى عنهم أبدا وهم إخوان الصفاء، **وإخوان كالدواء** يحتاج إليهم في بعض الأوقات وهم الفقهاء، **وإخوان كالداء** لا يحتاج إليهم أبدا وهم أهل الملق والنفاق لا خير فيهم.[305]

قال ابن سعدي في منظومة «منهج الحق»:

وَصَاحِبْ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ

وَإِيَّاكَ وَالْمَرْءَ الَّذِي إِنْ صَحِبْتَهُ خَسِرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ

خُذِ العَفْوَ مِنَ أَخْلَاقِ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نِعْمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي تُفْضِي إلى الخَيْرَاتِ وَالإِحْسَانِ

فالذي يصحَبُ هؤلاء هو الذي يكون أهلا لأن يبلغ تلك الدرجات العلا.

والناظر في الأخوة المعقودة بين الخلق يجدها مقسومة على ثلاثة أنواع:[306]

أولها: أُخُوَّة النسب.

وثانيها: أُخُوَّة النَشَب -بالشين - .

وثالثها: أُخُوَّة الطلب.

فأما أخوة النسب فهي الأخوة التي تجمع بين اثنين فأكثر في الانتساب إلى أبٍ، فالجامع لهم نطفة ذلك الرجل.

305- «الآداب الشرعية» (4/ 219)، والمَلِق: الذي يعطي بلسانه ما ليس في قلبه.

306- من تعليق شيخنا العصيمي وفقه الله على «فصول في فضل العلم وأدبه» منتخبة من كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأما أخوة النشَب فهي الأخوة التي تجمع بين مُتَشَاكِلَين فأكثر في مال أو عقار، فإن النشَب هو المال والعقار وأغراض الدنيا.

وأما أخوة الطلب فهي ما يجمع بين مُتَوافِقين في طلب مقصود فاضلٍ أو غير فاضل فإن مطالب الخلق متفاوتة، **وأعظم هذه الأخوة هي أخوة الدين والعلم**.

فأولى الناس أن تتأكد بينهمُ المودة وتنعقد المحبة وأن يتعاضدوا ويتناصروا هم طلبة العلم والدين، وكل ما يفصم عروة المحبة والمودة بينهم فإنه مما يُضاد هذه الأخوةَ التي جاءت بها الشريعة.

ومن جميل قول العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «حلية طالب العلم»**: «كما أن العرق دساس، فإن «أدب السوء دساس»، إذ الطبيعة نقالة، والطباع سراقة، والناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض، فاحذر معاشرة من كان كذلك، فإنه العطب، «والدفع أسهل من الرفع». وعليه؛ فتخير للزمالة والصداقة من يعينك على مطلبك، ويقرِّبك إلى ربك، ويوافقُكَ على شريفِ غرضِك ومقصدِك، **وخُذْ تقسيم الصديق في أدق المعايير**:

1. صديق منفعة.
2. صديق لذة.
3. صديق فضيلة.

فالأولان منقطعان بانقطاع موجبهما، المنفعة في الأول واللذة في الثاني. وأما الثالث فالتعويل عليه، وهو الذي باعِث صداقته تبادل الاعتقاد في رسوخ الفضائل لدى كل منهما.

وصديق الفضيلة هذا «**عُملَةٌ صعبَةٌ**» يعز الحصول عليها» [307]. انتهى.

307- وللشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام حسن حول الصداقة في «رسائل الإصلاح» (2/ 7-19)، فراجعه غير مأمور، فإنه مفيدة جدا، والشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد استفاد منه في تقسيم الأصدقاء.

ومع هذا، فلا ينبغي للمسلم أن يضعُفَ سيرُه وإن قل الرفيق، وطال الطريق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [308]: «وينبغي أن لا يتوقف العبد في سيره على هذه الغنيمة، بل يسير ولو وحيدا غريبا، فانفراد العبد في طريق طلبه دليل على صدق المحبة». انتهى.

-تمَّ التعليق بحَمَدِ الله- [309]

هذا، واللهُ سبحانه وتعالى المسئول، المرجو الإجابة، أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه، راهبة منه، راغبة فيما لديه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا، ولا يجعلنا من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا.

إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل. [310]

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

308- «الرسالة التَّبوكية» (ص 224).

309- وآخر تعديل كان عصر السبت يوم عرفة عام 1440، الموافق لـ 10 أوت 2019، بمدينة «ليون».

310- ختم الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه «الروح» بهذا الدعاء العظيم.

فهرس الموضوعات

المقدمة **1**

نصُّ المنظومة **4**

بداية الشرح **6**

معنى السير إلى الله 6

التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل **10**

منزلة الإخلاص والاتباع **13**

الإخلاص 13

الاتباع وموافقة السنة 17

منزلة الخوف والرجاء والمحبَّة **19**

منزلة الرجاء 20

منزلة الخوف 22

منزلة المحبة 25

الأسباب الجالبة لمحبة الله للعبد 29

منزلة الذكر **31**

القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات 37

ذكر الله لا ينقطع حتى في الجنة 39

فعل الطاعة وترك المعصية **43**

لا وَلاية ولا كَرَامة إلا بلزوم طريق الاستقامة 45

المداومة على النوافل بعد الفرائض **48**

الحَذَر من العُجب 53

منزلة الصَّبر **57**

نكتة بديعة حول الصَّبر 64

منزلة الرضا 67
فائدة 69
منزلة الشكر 70
منزلة التوكل..... 73
علاقة الأسباب بالتوكل.....74
فائدة من قصة ذي القرنين.....76
الفرق بين الثّقة بالله والغرور والعجز 76
حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم هو أكمل الأحوال.....78
منزلة الإحسان 80
كمالُ حالهم في نُصح الخَلق..... 85
نكتة بديعة في أهمية الدَّعوة إلى التوحيد وخطر كتمانه.....89
تَعلُّق قلوبهم بالله..... 91
منزلة الرِّعاية والخوف من سوء الخاتمة 94
الخوف من عدم قبول العمل 95
الخوف من سوء الخاتمة 99
حال السلف مع الخواتيم.....103
شُرورُ النفس كثيرة، والناجي من احتمى منها 104
منزلة الزُّهد وجمعيَّةُ القلب على الله 107
منزلة الإخلاص، وإرادة وجه الله.....110
أصحاب هذه المنازل هم أحق الناس بالصحبة.....113
من الآثار الحسنة لصحبة الأخيار.....113
فهرس الموضوعات 121